منهج السنة

في تكوين شخصية المسلم

تأليف

دكتور. هشام منصور عبد الحي

مدرس الحديث وعلومه بكلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق

من ٩٣١ إلى ٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد

لقد تسلمت الأمة الإسلامية من قبل قيادة الحضارة البشرية بشتى مناحيها منذ نشأتها على يد سيد البشر وإمام المرسلين محمد ﷺ فأعزها الله تعالى وأكرمها ؛ وبوأها مكانة الريادة والسيادة ؛ والإمامة بين الأمم المتحضرة آنذاك ؛ وكان ذلك بفضل الله تعالى أولاً ؛ ثم بفضل تمسكها بعقيدتها الصافية ؛ قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) لذلك اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً ببناء شخصية الفرد المسلم ؛ باعتباره اللبنة الأولى التي من مجموعها يتكون بناء المجتمع ؛ والذي يمثل بدوره الأساسي الذي يقوم عليه بناء الدولة أو الأمة الإسلامية ؛ فكلما كانت هذه اللبنة سليمة ومتينة وقوية كان ما يقوم عليه من البناء متيناً وقوياً ثابتاً لا تزلزله عوامل التعرية المختلفة ولا تصيبه القلاقل بالتصدع والانهيار.

ومن هنا جاءت عناية الشريعة الإسلامية ببناء الفرد المسلم فعملت على تهيئة كافة الأسباب التي تحقق لهذا الفرد شخصيته الإعتدادية عن طريق تحقيق فرديته أي اعتداده بنفسه ؛ ومن ثم الحفاظ على ذاتيتها واستقلالها. وأن من أسباب تراجع الأمة الإسلامية في الوقت الحالي ؛ هو ضعف شخصية المسلمين ؛ وشعورهم بالهزيمة النفسية من الداخل ؛ ما يجعله يفقد الثقة بنفسه ؛ فيتقاعس عن القيام بواجباته ؛ ويفقد الأخذ بزمام المبادرة والمسارعة إلى الأعمال واقتحام العقبات ؛ فيكتفي باتباع النماذج الجاهزة من الكفار الذي يعتقد فيهم القوة ؛ ويرى أنهم القدوة التي ينبغي أن تحتذى. ومن هنا فإن الإسلام يعمل على تقوية شخصية المسلم الاستقلالية عن طريق تحقيق فرديته. أي اعتداده بنفسه ؛ والحفاظ على ذاتيتها

---

(١) سورة المنافقون آية رقم ٨

واستقلالها ، وفي هذا البحث أتناول بإذن الله تعالى طرق تكوين شخصية المسلم واعتزازه بنفسه في الإسلام ؛ والآثار المترتبة على هذا التكوين في حياة المسلم.

وبذلك ينقسم البحث إلى فصلين :

الفصل الأول : تكوين شخصية المسلم عن طريق بث روح الاعتزاز بالنفس فيه.

الفصل الثاني : آثار تكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى المسلم.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

الباحث

الفصل الأول

تكوين شخصية المسلم عن طريق بث روح الاعتزاز بالنفس فيه.

إن الإسلام ينظر إلى الفرد على أنه عضو في الجماعة مستقل له كرامته وحريته وعليه مسئوليته [١] ومن هذا المنطلق ؛ فإن الإسلام في سعيه لتكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى الفرد ؛ يعمل على تحقيق ثلاثة عناصر أساسية وهي :-

١ - تحقيق كرامته الإنسانية.

٢ - ضمان حرياته العامة.

٣ - تقرير مسئوليته الشخصية.

هذا إلى جانب أمور أخرى سأحاول - بعون من الله - أن أحدد ملامحها من خلال المباحث التالية.

المبحث الأول : العمل على تحقيق كرامة الفرد الإنسانية.

المبحث الثاني : العمل على ضمان الحريات العمة للفرد.

المبحث الثالث : العمل على تقرير مسئولية الفرد الشخصية.

المبحث الرابع : العمل على ربط قلب المسلم بالله وحده.

المبحث الخامس : دعوة المسلم صراحة إلى الاعتزاز بالنفس.

---

(١) انظر : نظرات في الإسلام د/ محمد عبد الله دراز ص ١٦٤.

المبحث الأول

العمل على تحقيق كرامة الفرد الإسلامية.

إن أول طريق سلكها الإسلام في تكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى الفرد تحقيق كرامته الإنسانية إن الكرامة التي يتمتع بها الفرد في ظل الإسلام كرامتان ؛ إحداهما كرامة طبيعية وأصلية ؛ والثانية كرامة إضافية مكتسبة (١)

فالكرامة الطبيعية الأصلية هي الكرامة التي يستمدها الإنسان من إنسانية مباشرة ؛ أي التي يستحقها الإنسان بمقتضى كونه إنساناً بغض النظر عن جنسيته ولونه ودينه ؛ كرامة لا تتبع منزلته ووطنه ؛ ولا حسبه ونسبه ؛ ولا أي عرض من أعراض الدنيا الزائلة (٢).

قال تعالى في تقرير هذا النوع من الكرامة الإنسانية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٣)

والكرامة الإضافية المكتسبة هي الكرامة التي يكتسبها الفرد بعمله الصالح ؛ كالإيمان والتقوى والعلم. قال تعالى في تقرير هذا النوع من الكرامة الإنسانية ﴿يرْفَعِ

---

(١) انظر الأصول الفكرية للتربية الإسلامية ؛ د/ مقداد بالجن «أصول التربية الإسلامية لطلاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية» ص ٥٩١ – (بالآلة الكاتبة) وانظر أيضاً : دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية د/ محمد عبد الله دراز – ص ٣٣ دار القلم – الكويت – ١٩٨٠م وقد قسم الدكتور محمد دراز الكرامة الإنسانية إلى ثلاثة أقسام وقال (إن الكرامة التي يقرها الإسلام لشخصية الإنسان كرامة مثلثة. كرامة هي عصمة وحماية ؛ وكرامة هي عزة وسيادة ؛ وكرامة هي استحقاق وجدارة ؛ كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته (ولقد كرمنا بني آدم) وكرامة تتغذى على عقيدته (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وكرامة يستحقها بعمله وسيرته (ولكل درجات مما عملوا) ؛ (ويؤت كل ذي فضل فضله)

(٢) انظر : تنظيم الإسلام للمجتمع ؛ الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٦ ؛ الإسلام وحقوق الإنسان د/ صبحي عبده سعيد ٨١ ط مطبعة جامعة القاهرة.

(١) سورة الإسراء آية رقم (٧٠)

اللّهُ الّذين آمنُوا منكُمْ والّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ درجات ﴾ (١) وقال عز وجل ﴿ إنّ أكْرمكُمْ عنْد اللّه أتْقاكُمْ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ولِكُلٍّ درجاتٌ ممّا عملُوا وما ربُّك بغافلٍ عمّا يعْملُون﴾ (٣)

ولم يكتف الإسلام بتقرير كرامة الإنسان قولاً على نحو ما سبق بيانه ؛ بل قرن ذلك بأدلة عملية تؤكد هذا التكريم.

مظاهر تكريم الإنسان.

١- خلقه في أحسن تقويم

ميز الله تعالى الإنسان من بين سائر خلقه بتركيبة فريدة ؛ وتصوير بديع ؛ وهو ما امتن الله به على الإنسان ؛ وقال سبحانه ﴿خلَقَ السّمَاواتِ والْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤)

٢- تزويده بنعمة العقل والفهم :

لم تقتصر عناية الله تعالى بالإنسان على منحة المظهر الخارجي القويم والجميل ؛ بل يتعدى ذلك إلى تزويده بالقدرات اللازمة والصفات الكمالية المختلفة التي تمكنه من أداء مهمته ؛ فزوده بالعقل والفهم ؛ ونعمة العقل من أجل نعم الله تعالى على البشر ؛ لأنه مناط التكليف.

٣- تزويده بالعلم وإسجاد الملائكة له :

وهذا غاية التكريم والتعظيم وهو ما امتن الله به على الإنسان أيضاً ؛ وهو ما أغاظ إبليس أغار صدره على آدم عليه السلام فكان سبباً في كفره وشقاوته ؛ ثم إبعاده من رحمة الله وطرده من الجنة قال تعالى ﴿ وعلّم آدم الْأَسْماءَ كُلّها ثُمّ عَرضَهُمْ على الْمَلائِكَةِ فقالَ أَنْبِئُونِي بِأسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادقِينَ(٣١)

---

(٢) سورة المجادلة آية رقم (١١)

(٣) سورة الحجرات آية رقم (١٣)

(٤) سورة الأنعام آية رقم (١٣٢)

(٥) سورة التغابن آية رقم (٣)

قَالُوا سُبْحانك لا عِلْمَ لنا إلّا ما علّمْتَنا إِنّك أنْت الْعليمُ الْحكيمُ (٣٢) قال يا آدمُ أنْبِئْهُمْ بِأسْمائِهِمْ فلمّا أنْبأهُمْ بِأسْمائِهِمْ قالَ ألمْ أقُلْ لكُمْ إنِّي أعْلمُ غيْب السّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وأعْلمُ ما تُبْدُون وَمَا كُنْتُمْ تكْتُمُون (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائكة اسْجُدُوا لِآدَمَ فسجَدُوا إلّا إبْلِيس أَبى وَاسْتَكْبر وكان مِن الْكافِرِينَ (٣٤) ﴾ [١]

٤- استخلافه في الأرض :

وهذا نتيجة طبيعية لما سبق بيانه من تكريم الإنسان ؛ وخلقه في أحسن صور وأجمل قوام ؛ وتسليحه بالعلم والمعرفة ؛ وتزويده بنعمة العقل والفهم ؛ قال عز وجل ﴿ وإِذْ قالَ ربُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خلِيفةً﴾ [٢]

يقول الشيخ سيد قطب معلقاً على الآية الكريمة : «وإذن فهي المشيئة العليا التي تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض .... وإذن فهي منزلة عظيمة منزلة هذا الإنسان في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة ؛ وهو التكريم الذي شاءه خالقه الكريم» [٣]

٥- تسخير الكون له :

وفي سبيل رفعة شأن الإنسان على سائر المخلوقات ؛ سخر الله تعالى له ما في الكون ، قال سبحانه ﴿وَسخّرَ لَكُمُ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبيْنِ وسخّر لكُمُ اللّيْل والنّهارَ﴾ [٤]

وقال عز وجل ﴿ أَلمْ ترَوْا أنّ اللّهَ سخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوات وما فِي الْأَرْض وأَسْبَغ عَلَيْكُمْ نِعمهُ ظَاهِرةً وَبَاطِنَةً ﴾ [٥] ؛ وقال عز من قائل : ﴿وسخّر لكُمْ ما

---

(١) سورة البقرة ؛ الآيات : ٣١ – ٣٤.

(٢) سورة البقرة ؛ الآية ٣٠

(٣) في ظلال القرآن ١/٥٦. دار الشروق ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م ؛ ط. التاسعة

(٤) سورة إبراهيم ؛ الآية ٣٣

(٥) سورة لقمان ؛ الآية ٢٠

في السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ جميعاً منْهُ﴾ [١] وهذه أدلة عملية تؤكد على أن الإسلام كرم الإنسان ؛ وفضله على سائر خلقه ؛ وبوأه مكانة عالية ومنزلة سامية في هذا الكون ؛ ولا يخفى ما في ذلك من إيجاد لروح الاعتزاز بالنفس لدى الإنسان فإن المرء الذي عرف أنه مكرم ؛ ومفضل على غيره ؛ ومخلوق متميز في هذا الكون ولد ذلك في نفسه شعورا بأنه كيان مستقل له مكانته ومنزلته في الوجود ؛ وهذا من شأنه أيضاً أن يحميه من الإمعية والتقليد الأعمى للآخرين ؛ لأن ذلك التقليد يعني إلغاء شخصيته المستقلة ؛ فضلاً عن أنه إهدار لنعمة الرفعة والتفضيل الذي أنعم الله به عليه .

٦- الحرص على صيانته ومعالم ذلك :

ومن الأدلة الهامة على تكريم المرء وتفضيله في الإسلام ؛ ما أحاط الله به من الرعاية والصيانة ؛ سواء قبل ولادته أو بعدها ؛ ويستمر ذلك طوال مراحل حياته.

وفيما يلي أتناول شيئاً من معالم تلك الصيانة الإلهية للإنسان في الفقرات التالية:

أ- الأمر باختيار المحضن الصالح له :

تكمن أهمية الزوجة في أنها المنجبة للأولاد ؛ والحاضنة والمربية لهم ؛ ولذلك يرثون عنها كثيراً من الصفات ؛ ومن هنا حث رسول الله ﷺ على ضرورة اختيار الزوجة الصالحة

فقد روى الإمام ابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها ؛ قالت قال رسول الله ﷺ (تخيروا لنطفكم ؛ أنكحوا الأكفاء ؛ أنكحوا إليهم) [٢] .

---

(١) سورة الجاثية ؛ الآية ١٣

(٢) سنن ابن ماجه١ / ٦٣٣ ؛ كتاب النكاح حديث رقم (١٩٦٨) ؛ وصححه الحاكم ؛ كما نقله الحافظ ابن حجر ؛ فتح الباري ٩ / ٦٧.

وفي أحضان الزوجين تتكون عواطف الطفل وميوله ؛ وتتربى ملكاته ؛ وعنهما يتلقى الطفل لغته ويكتسب كثيراً من التقاليد و العادات الاجتماعية ؛ وعن طريقهما يتعرف على السلوك الإسلامي المقبول. ومن أجل هذا اهتم الإسلام اهتماما كبيراً ؛ واعتنى اعتناء عظيماً بحسن اختيار كلا الزوجين لشريك حياته ؛ فوضع لاختيار شريك الحياة من القواعد ما يكفل للمسلمين أن يهتدوا بهديه ؛ وساروا على نهجه ؛ أن يكون زواجهم غاية في السعادة ؛ ومنتجا لذرية أسوياء متوازنين في ميولهم ؛ أقوياء في شخصيتهم.

فمن قواعد اختيار الزوجين أن يكون الاختيار على أساس الدين والخلق ؛ ليكون ذلك دافعاً إلى القيام بالواجب على الوجه الأكمل والأمثل.

فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «تنكح المرأة لأربع : لمالها ؛ ولحسبها ؛ ولجمالها ؛ ولدينها ؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك» (١)

يقول الإمام النووي في شرح هذا الحديث «وفي هذا الحديث الحث على مصاحبة أهل الدين في كل شيء ؛ لأن صاحبهم يستفيد من أخلاقهم وبركاتهم وحسن طرائقهم ؛ ويأمن المفسدة من جهتهم» (٢)

وكما أرشد رسول الله ﷺ الرجل إلى اختيار ذات الخلق زوجة له ؛ كذلك أرشد ﷺ أولياء أمر المرآة إلى اختيار ذي الخلق والدين لمواليتهم ؛ ليكون هو الآخر قادراً على القيام بالواجب على الوجه الأكمل والأمثل في رعاية أسرته ؛ وتربية أولاده التربية الواقية من الذوبان والانحلال فقد روى الإمام الترمذي عن أبي بكر

---

(١) صحيح مسلم كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين مسلم مع شرح النووي ١٠ / ٣٠٥ ؛ حديث رقم (١٤٦٦)

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٠ / ٣٠٥ ؛ ٣٠٦ .

رضي الله عنه قال : قال ﷺ «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ؛ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» (١)

ومن هذه القواعد أيضاً أن يكون اختيار الزوجة على أساس أصالة المعدن وطيب المنبت فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ؛ خيارهم في الجاهلية في الإسلام إذا فقهوا ؛ والأرواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ؛ وما تناكر منها أختلف» (٢)

ب- الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند الدخول بأهله :

ومن معالم الصيانة وتحصين الفرد أيضاً أن الإسلام أرشد الرجل أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عندما يريد أن يأتي أهله التي ستكون أماً ومحضناً لهذا الفرد ؛ حتى لا يضره الشيطان بعد ذلك ؛ ويكون في منجى بإذن الله من وساوس الشيطان ونزعاته.

ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ قال : قال رسول الله ﷺ «لو أن أحدكم حين يأتي أهله قال : بسم الله ؛ اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ؛ فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً» (٣)

ج- الأمر بالتأذين في أذنه عند الولادة :

ويمضي الإسلام في رسم معالم الإرشاد إلى طرق تحصين الفرد ضد وساوس الشيطان إغواءاته ، لتكون شخصيته قوية مفعمة بالإيمان ؛ ومقاومة لمكائد الشيطان

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن ؛ كتاب النكاح ، باب من جاء في من ترضون دينه فزوجوه ؛ حديث رقم (١٠٩٠). تحفة الأحوذي ٤/١٧٢ ؛ ١٧٣

(٢) صحيح مسلم مع شرح النووي ١٦/ ٤٢٤ : كتاب البر والصلة ؛ باب الأرواح مجنده ؛ حديث رقم (٢٦٣٨).

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٩ / ١٣٦ ؛ كتاب النكاح ؛ باب ما يستحب أن يقوله إذا أتى أهله ؛ رقم (١٤٣٤)

، فيوجه صلى الله عليه وسلم إلى التأذين في أذن المولود اليمنى عقب ولادته مباشرة.

فقد روى الإمام أبو داود عن أبي رافع [١] عن أبيه رضي الله عنه قال (رأيت رسول الله ﷺ أذن في أذن الحسن رضي الله عنه – حين ولدته فاطمة رضي الله عنها – بالصلاة [٢] وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله السر في ذلك بقوله : «أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان (كلمات الأذان) المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته ؛ والشهادة التي هي أول ما يدخل بها في الإسلام ؛ فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا ؛ كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها ؛ وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثره به ؛ وإن لم يشعر ؛ مع ما في ذلك من فائدة أخرى ؛ وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان ؛ وهو كان يرصده حين يولد ؛ فيسمع شيطانه ما يضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به» [٣]

د- الأمر بتحسين أسمه :

ويرشد الإسلام هنا وهو يسعى إلى تحصين الفرد وصيانته – إلى معلم آخر هام وهو تحسين اسم المولود ؛ لما لهذا الأمر من كبير الأثر في علو همة الطفل وسمو شخصيته ؛ واجتناب كل اسم ولقب من شأنه أن يحط من قدره ومكانته ؛ أو يخدش من عزته وكرامته ؛ أو يؤثر على شخصيته ومعنوياته : أو يجعله مدعاة لاستهزاء الآخرين به ؛ أو سخريتهم منه.

---

(١) أبو رافع : هو موالي آل عمر الصائغ ؛ المدني ثم البصري ؛ من أئمة التابعين ؛ وهو مولى آل عمر ؛ واسمه نفيعَ. انظر سير أعلام النبلاء ٤ / ٤١٤.

(٢) سنن أبي داود مع عون المعبود ١٤ / ٤٩ ؛ كتاب الأدب ؛ باب في المولود يؤذن في أذنيه ؛ رقم (٥٠٨٣)

(٣) تحفة الودود بأحكام المولود ص ٢٥ ؛ ٢٦ : ط مؤسسة الريان بدون تاريخ.

فقد روى الإمام أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ؛ فأحسنوا أسمائكم» (١)

ولم يكتف رسول الله ﷺ بإرشاد الأمة إلى تحسين أسماء الأولاد ؛ بل سعى ﷺ عملياً إلى تغيير بعض الأسماء القبيحة بنفسه

وفي ذلك ما روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ غير اسم «عاصية» وقال لها : «أنت جميلة» (٢) ؛ كما غير اسم رجل يقال له : «أصرم» إلى «زرعة» (٣) قال أبو داود : «وغير النبي ﷺ اسم العاص ؛ وعزيز ؛ وعتلة ؛ وشيطان ؛ والحكم ، وغراب ؛ وحباب ، وشهاب ؛ فسماه هشاماً ؛ وسمى حرباً سلماً ؛ وسمى المضجع المنبعث ، وأرضاً تسمى عفرة سماها خضرة ؛ وشعب الضلالة سماها شعب الهدى ؛ وبنو الزينة سماهم بنو الرشدة ؛ وسمى بني مغوية بني رشدة» (٤)

العلاقة بين الاسم والمسمى به :

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله مبيناً هذه العلاقة : «لما كانت الأسماء قوالب للمعاني ودالة عليها ؛ اقتضت الحكمة أن يكون بينها وبينها ارتباط وتناسب ؛ أن لا يكون المعنى معهما بمنزلة الأجنبي المحض الذي لا تعلق له بها ؛ فإن حكمة الحكيم تأبي ذلك ؛ والواقع يشهد بخلافه ؛ بل للأسماء تأثير في المسميات ؛ وللمسميات تأثر عن أسمائها في الحسن والقبح ؛ والخفة والظل ؛ واللطافة والكثافة ؛ كما قيل :

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

---

(١) سنن أبي داود مع عون المعبود ١٣ / ٢٩١ ؛ باب في تغيير الأسماء ؛ رقم (٤٩٢٧)

(٢) صحيح مسلم مع شرح النووي ١٤ / ٣٣٦ ؛ كتاب الآداب ؛ باب تغيير الاسم القبيح ؛ رقم (٢١٣٩)

(٣) سنن أبي داود مع عون المعبود ١٣ / ٢٩٥ ؛ باب في تغيير الاسم القبيح حديث رقم (٤٩١٣)

(٤) المرجع السابق ١٣ / ٢٩٨ ؛ حديث رقم (٤٩٣٥).

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة ؛ كما رأى أنه وأصحابه في دار عقبة بن نافع ؛ فأتوا برطب من رطب ابن طابا ؛ فأوله بأن لهم الرفعة في الدنيا والعقبة في الاخرة ؛ إن الدين الذي قد اختاره الله لهم قد أرطب وطاب ؛ وتأول سهولة أمرهم يوم الحديبية من مجيء سهيل بن عمرو وإليه» [١] وقال أيضاً «ولما كان بين الأسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقرابة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ؛ وما بين الأرواح والأجسام ؛ عبر العقل من كل منهما إلى الآخر ؛ كما كان أياس بن معاوية وغيره يرى الشخص فيقول : ينبغي أن يكون اسمه كيت وكيت فلا يكاد يخطئ.

وضد هذا العبور من الاسم إلى مسماة ؛ كما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ رجلاً عن اسمه فقال : «جمرة» قال : واسم أبيك؟ قال : «شهاب» قال : ممن ؟ قال : «من محرقة» ؛ قال فمنزلك ؟ قال : «بجرة النار» ؛ قال : فأين مسكنك؟ قال : «بذات لظى» ؛ فقال له : «أدرك أهلك فقد هلكوا واحترقوا» ؛ فذهب فوجد الأمر كما قال عمر رضي الله عنه» [٢]

ومما يؤكد على وجود العلاقة بين الاسم والمسمى ما روى الإمام البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبيه أن أباه جاء إلى النبي ﷺ فقال له «ما اسمك؟» قال حزن [٣] ؛ قال : «أنت سهل» ، قال : لا أغير اسماً سمانيه أبي ؛ قال ابن المسيب : «فما زالت الحزونة فينا بعد» [٤]

---

(١)انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/ ٣٣٦ ؛ ط. مؤسسة الرسالة بتحقيق شعب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ؛ ١٤١٢ هـ ــ ١٩٩١م ؛ ط الخامس والعشرون.

(٢)المرجع السابق ٢ / ٣٣٧

(٣) الحزن : بفتح الحاء وسكون الزاي : ما غلظ من الأرض وهو ضد السهل ؛ واستعمل في النفس [illegible] فتح الباري [illegible]

وما أخرجه الإمام الدارقطني بسنده إلى المدائني [١] قال : كان جهيية بن كناز على الأبله [٢] ؛ فقال عمر بن الخطاب : «لا حاجة لنا فيه ؛ هو يخبئ وأبوه يكنز» [٣]

ويقول أحد المعاصرين في بيان وجود العلاقة بين الاسم والمسمى به : «فإن للاسم تعلقاً بالمسمى ؛ ومن عجائب الاتفاق أن الذين أدركهم الإسلام من أعمام النبي ﷺ أربعة ؛ لم يسلم منهم اثنان ؛ وأسلم اثنان ؛ وكان اسم من لم يسلم ينافي أسامي المسلمين ؛ وهما : أبو طالب واسمه : عبد مناف [٤] وأبوه لهب ؛ واسمه عبد العزى [٥] ؛ بخلاف من اسلم وهما : حمزة والعباس» [٦] وقد نقل الحافظ ابن حجر عن بطال [٧] تعليقه على قوله ﷺ : «أخنع اسم الله رجل تسمى بملك الأملاك [٨] قال : وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً» [٩]

---

(١) هو عبد الله بن المسور بن محمد بن جعفر بن أبي طالب ؛ أبو جعفر المدائني ؛ وكان معروفاً قليل الحديث. انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ٢٣١

(٢) الأبله – بضم الهمزة والباء وفتح اللام وتشديدها : البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحري. انظر : النهاية في غريب الحديث ؛ مادة (أبل) .

(٣) المؤتلف والمختلف ٤ / ١٩٦٥ ؛ طبع دار الغرب الإسلامي بتحقيق د. موفق عبد الله عبد القادر ؛ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦م ؛ ط. الأولى.

(٤) انظر فتح الباري ١٠ / ٦٠٨

(٥) انظر فتح الباري ١٠ / ٦٠٨

(٦) «حول عناوين الكتب ووقفه مع كتاب : دفع شبه التشبيه» مشهور حسن مشهور ؛ مقال منشور في مجلة الأصالة ؛ العدد الأول ؛ ١٥ ربيع الأول ١٤١٣ هـ ؛ ص ٥٢.

(٧) هو عبد الله بن المسور بن محمد بن جعفر بن أبي طالب ؛ أبو جعفر المدائني ؛ وكان معروفاً قليل الحديث. انظر : طبقات ابن سعد ٧ / ٢٣١

(٨) حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١٠ / ٦٠٤ ؛ مع فتح الباري ؛ كتاب الأدب ؛ باب أبغض الأسماء إلى الله ؛ حديث رقم (١٢٦٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) فتح الباري ١٠ / ٦٠٥

ويخلص الباحث من هذا العرض في هذه القضية شإلى أنه يجب علينا الاهتمام بتحسين أسماء أبناء المسلمين إذا أردنا أن ننشئ جيلاً قوياً في شخصيته ؛ مستقلاً في كيانه : معتزاً بنفسه ؛ وأن نبتعد عن الأسماء ذات الدلالات القبيحة وألا ننساق وراء التشبه بالكفار في أسمائهم وألقابهم كما هو شائع اليوم بين المسلمين في بعض البلاد الإسلامية والعياذ بالله.

هـ- تقرير حقه في ثبوت نسبه :

وفي سبيل صيانة الفرد وتحصينه ضد مداخل الذل والهوان ، قرر الإسلام حق الطفل في ثبوت نسبه ؛ فلم يترك ذلك موكولاً إلى إرادة والديه وأهله ؛ فإن شاؤوا أثبتوه ؛ وإن شاؤوا نفوه ؛ بل لقد حذر الإسلام الآباء من إنكار نسب أولادهم منهم ؛ كما حذر النساء من إلحاق الولد إلى غير أبيه الحقيقي ؛ لما في ذلك من ضياع النفوس واختلاط الأنساب.

فقد روى الإمام أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ؛ ولن يدخلها الله جنته ؛ وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله تعالى منه يوم القيامة وفضحه إلى رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة[1]

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا ؛ فضحه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ؛ قصاص بقصاص» [2] ومثلما حذر الإسلام الوالدين من نفي نسب الولد أو إلحاقه بغير أبيه ؛ كذلك حذر الولد من الانتساب إلى غير أبيه.

---

(١) سنن أبي داود مع عون المعبود ٦/ ٣٥١ ؛ ٣٥٢ ؛ كتاب الطلاق ؛ باب التغليظ في الانتفاء ؛ حديث رقم (٢٢٤٦) ؛ وسكت عنه الإمام أبو داود.

(٢) مسند أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ٧ / ٢٠ ، حديث رقم (٤٧٩٥) ؛ وقال عنه محققه : «إسناده صحيح»

ففي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس من رجل ادعى لغير أبيه – وهو يعلمه – إلا كفر بالله ؛ ومن ادعى قوماً ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار» (١)

واستكمالاً لسلسلة الأحكام الأحكام في صيانة النسب ؛ أبطل نظام التبني الذي كان معمولاً به في الجاهلية ؛ حيث كان الرجل يتبنى ولداً وينسبه إلى نفسه ؛ ويشهد الناس على ذلك ؛ فيصبح أبنه يرثه ويورثه ؛ فقد تبنى النبي ﷺ «زيد بن محمد» حتى نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (٢)

وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول الإمام القرطبي : «اجمع أهل التفسير على أن ذا نزل في زيد بن حارثة ؛ وروى الأئمة أن ابن عمر قال : " ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت : (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) ، فرفع الله حكم التبني ، ومنع من إطلاق لفظه وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه نسبا "(٣)

وللباحث أن يستنتج مما سبق عرضه هنا أن ثبوت نسب الولد لوالده من حقوق الولد الأساسية التي قررها الإسلام حفاظا له ، ومراعاة لمصلحته ؛ لأنه مما يدفع به عن نفسه معرة قد تقعده عن بلوغ الهدف ، أو تكون سببا في شعوره بالخزي والعار ، أو بالذل والانكسار بين أقرانه ، مما يحطم شخصيته ، ويجعله عرضة للإمعية وتقليد الآخرين ، ولا يخفى ما في ذلك من تكريم للفرد ، وتكوين لروح الاعتزاز لديه .

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٦/٦٢٣ ؛ كتاب المناقب ؛ الباب (٥) . حديث رقم (٣٥٠٨) ، وصحيح مسلم مع شرح النووي ٢/٤١١ ، كتاب الإيمان ؛ باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو ويعلم ، حديث رقم (٦١).

(٢) سورة الأحزاب ؛ الآيتان ٤ ، ٥

(٣) تفسير القرطبي ١٤ / ١١٨ ، ١١٩

المبحث الثاني

العمل على ضمان الحريات العامة للفرد

ومن الطرق التي سلكها الإسلام كذلك لتكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى الفرد ضمان حرياته العامة ، ذلك لأن العبودية إهدار للكرامة الإنسانية التي يحرص الإسلام على بنائها ، وتبديل للفطرة التي فطر الناس عليها . ولذلك لما جاء الإسلام والأنظمة العالمية السائدة يومئذ في الشرق والغرب تفتح باب الرق على مصراعيه ، أعلنها نبي الإسلام محمد ﷺ ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها [١] ووفر للإنسان حرياته العامة ،حريته في الفكر والاعتقاد ، حريته في الرأي والتعبير ، حريته في العمل ، وحريته في التملك طالما لم يترتب على ممارية هذه الحريات ضرر لأحد .

ولعل من المناسب أن يتناول الباحث بعض هذه الحريات بالتوضيح والتمثيل ليتضح منهج الإسلام في تقريرها .

١- حرية الفكر والاعتقاد :

قرر الإسلام لكل فرد في هذه الحياة الحق في أن يفكر ويعتقد ما يشاء وكيف يشاء ، دون أن يحجر على عقله أحد ، أو يتحكم في ضميره .

ولهذا دعا القرآن الكريم الناس إلى التفكير الحر في آيات الله الكونية ليستنبطوا من عجائب المخلوقات وعظمتها قدرة الخالق ووحدانيته ، فقال عز وجل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ

---

(١) انظر دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية ؛ د. محمد عبد الله دراز ؛ ص ٣٧ ؛ ٣٨ز

ثُمَّ يُعيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مع اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ (١)

ومثلما دعا الإسلام إلى التفكير الحر وجعل ذلك الأساس في اختيار العقيدة ، كذلك منع الإكراه على العقيدة لكونه منافيا لحرية الاعتقاد ، فقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢) وقال سبحانه تأكيداً للحكم السابق: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٣)

٢- حرية الرأي والتعبير:

ومن الحريات التش ضمنها الإسلام أيضاً للفرد،حرية الرأي والتعبير ، فللفرد الحق في أن يكون رأيا خاصاً به ويعبرعنه بأية وسيلة من الوسائل المشروعة . ومن هذا المنطلق قرر الإسلام لكل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي حرية النقد والتقويم بموجب واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنصوص عليه في كثير من نصوص الكتاب والسنة. قال سبحانه وتعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُون بِاللَّهِ ﴾ (٤)

وروى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (٥) ولقد طبق النبي هذتا المبدأ تطبيقاً عملياً في حياته فلم يحجر على العقول ولم يلجم الأفواه وألا فإن بعض المنافقين كانوا يتطاولون على مقامه الشريف بالنقد

(١) سورة النمل الآيات : ٦٠ – ٦٤.

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٩٩

(٣) سورة يونس ، الآية : ٩٩

(٤) سورة آل عمران : الآية : ١١٠

(٥) صحيح مسلم ١ / ٦٩ ؛ باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ؛ حديث رقم ٤٨

الازع ولم يكن يمنعهم من ذلك بل كان النبي يتقبل منهم النقد بصدر رحب ويرد عليهم رداً جميلاً

ومن موافقه صلى الله عليه وسلم في ذلك ما أشار إليه قوله تعالى:من ﴿ومِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يسْخَطُونَ﴾(١)

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الأيه وصف الله قوماً من المنافقين بأنهم عابوا النبي في تفريق الصدقات وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم، قال أبو سعيد الخدري: بينا رسول الله يقسم مالاً إذ جاءه حرقوص بن زهير أصل الخوارج... فقال اعدل يا رسول الله فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم اعدل فنزلت الأيه وعندها قال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله اقتل المنافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي. (٢) هكذا كان موقف النبي مع المنافق الذي تطاول بالنقد الاذع، فلم يلمه، ولم يحاول سلب حريته في الكلام، بل نراه يرد عليه بحجة منطقية مقنعة: ويلك ومن يعد إذ لم أعدل!! بل وأكثر من ذلك أننا نجده يحول دون عمر بن الخطاب. الذي غضب لله وهمّ بقتل هذا المنافق.

وواضح من هذا الحديث النبوي الشريف أن النبي الخاتم بلغ بموقفه المذكور القمه في تطبيق مبدأ الحرية في الرأي والتعبير المكفولة للفرد في الإسلام. ولقد حرص الخلفاء من بعد النبي على حماية حرية الرأي والتعبير لأفراد المجتمع، فلقد خطب عمر بن الخطاب مرة يدعو تحديد المهور وعدم المغالاة فيها، وقال (ألا لا تغالوا في صدقات النساء، فأنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله، ما أصدق قط أمرأة من نسائه ولا بناته فوق أثنى عشرة أوقية، فقامت إليه امرأة فقالت يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا ! أليس الله سبحانه

(١) سورة التوبة ، الآية : ٥٨

(٢) تفسير القرطبي ٨ / ١٦٦

وتعالى يقول ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ (١) ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر. وفي رواية : فأطرق عمر ثم قال : كل الناس أفقه منك يا عمر!» (٢) وأقامت عليه الحجة من كتاب الله تعالى، وهذه صورة أخرى رائعة من صور التطبيقات العملية لحرية الرأي والتعبير في الإسلام.

٣- حرية العمل

ومن الحريات العامة التي يكفلها الإسلام للفرد أيضاً، حريته في العمل واكتساب الرزق والتماس المعاش.

وتعد حرية العمل من الحريات المهمة، لأنها أساس الحرية السياسية والقانونية وغيرهما، بحيث إذا انعدمت الحرية الاقتصادية انعدمت معها تلقائياً الحرية السياسية والقانونية، أن الذي يفتقر إلى غيره في اقتصاده لا يمكن أن يكون حراً في ممارسة حريته السياسية. (٣)

ولذلك فإن الإسلام في سعيه لبناء روح الاعتزاز للمسلم يقرر له حرية العمل لتحقيق استقلاله، ولتطوير خصائصه الإنسانية وترقيتها.

ومن هذا المنطلق أمر الله تعالى الإنسان بطلب الرزق كما في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٤)

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١١٠

(٢) المرجع السابق

(٣) انظر : مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة ؛ أبو الأعلى المودودي ص ١٠٩ ؛ ط ، دار القلم ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م ؛ وراجع أيضاً : حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي ؛ د. محمد فتحي عثمان ص ١٤٧ ؛ ط. دار الشروق ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م ؛ وفيه : «إن تقرير الحقوق الشخصية والفكرية والعقدية والسياسية والقانوية للإنسان مع عجزه اقتصادياً لا يتيح له التمتع بالحقوق الأولى بصورة فعالة»

(٤) سورة الملك ؛ الآية : ١٥

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير الآية الكريمة : «أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها ؛ وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكسب والتجارات» (١)

وقوله عز وجل : ﴿ فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فضْلِ اللّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ (٢) يقول الإمام القرطبي رحمة الله في تفسير الآية الكريمة : «يقول : إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم» (٣)

٤- حرية التملك :

ومن الحريات أيضاً التي يكفلها الإسلام للفرد حريته في تملك الأموال ؛ وهذه الحرية تأتي نتيجة طبيعية لما سبق من تقرير حريته في العمل ؛ إذ أن مقتضى ذلك أن يمتلك نتاج عمله ؛ وإلا لما كان لحرية العمل معنى ومن هنا نجد أن الإسلام لم يكتف بتقرير حرية التملك الخاص ؛ بل شرع تدعيماً لهذه الحرية – أسباباً لتملك المال ؛ فوضع أسباباً للملكية العامة ؛ كإحياء الأرض الموات وكالعقود الناقلة للملكية مثل البيع والشراء ؛ والإجارة والمزارعة ؛ والمسقاة ؛ والسلم ؛ والشركة وغيرها ؛ كما شرع أيضاً أسباباً للملكية بالخلافة سواء أكانت بالميراث أو بالوصية ؛ فإن الله عز وجل هو الذي شرع هذه الأسباب وجعلها منتجة ثمرتها في الملكية من غير أن يكون اعتداء على حق الجماعة أو على أحد الناس. (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٩٧

(٢) سورة الجمعة ؛ الآية ١٠

(٣) تفسير القرطبي ١٨ / ١٠٨

(٤) انظر في المجتمع الإسلامي ؛ الإمام محمد أبو زهرة ص ٢٤ ؛ ط. دار الفكر العربي ؛ دون سنة طبع ؛ وراجع أيضاً : الثورة في ظل الإسلام ؛ الأستاذ بهي الخولي ص ١٤٨ : ١٤٩ ؛ الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ ١٩٧١م.

أقول : هذه هي بعض الحريات العامة التي يكفلها الإسلام للفرد ؛ حتى تتحقق بها شخصيته الاستقلالية ؛ التي تتأبى على تقليد الآخرين والسير في ركابهم دون بصيرة ولا رؤية.

ثم علينا أن نعلم أن الحريات التي مرت بنا في هذا المطلب ليست محررة ومطلقة من كل قيد ؛ بل إنما هي حريات مقيدة بضوابط وقيود تمنعها أن تكون حريات شاردة أو متجاوزة حتى لا تكون معتدية على حقوق وحريات الآخرين ؛ ومن هنا فإن الإسلام لم يطلق الحريات بلا ضوابط ولا قيد ؛ وإلا لكان في ذلك الفوضى وإثارة الفتنة ؛ وإنما وضع الإسلام إزاء كل حرية من تلك الحريات ضوابط وقيوداً تحول دون وقوع الضرر ؛ كما تمنع أن تكون مصادمة لحقوق وحريات الآخرين [1]

(١) انظر : الإسلام حقوق الإنسان ؛ د. صبحي عبده سعيد ص ١٢٣

المبحث الثالث

العمل على تقرير مسؤولية الفرد الشخصية

ومن الطرق التي سلكها الإسلام أيضاً في تكوين روح الإعزاز بالنفس لدى الفرد : تقرير مسؤولية الشخصية. وهذه المسؤولية ذات شقين :

أحدهما : مسؤولية الإنسان الفردية عن نتاج أعماله الشخصية ؛ أو بمعنى آخر أن يكون الإنسان وحدة المسؤول عن تبعة الأعمال التي يأتيها مختاراً مدركاً.

والثاني : مسؤولية الإنسان عن تقويم الآخرين في تصرفاتهم بموجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد عمل الإسلام – وهو يسعى إلى بناء روح الاعتزاز بالنفس لدى المسلم – على تقرير كلا الشقين من المسؤولية الفردية على نحو ما أبينه في الفقرتين التاليتين:

أولاً : تقرير مسؤولية الإنسان عن أعماله الشخصية :

قرر الإسلام أن كل فرد من أفراد البشرية مسؤول أمام الله عز وجل بصفته الفردية ؛ وأنه يسأل أمام الله عن كل ما صدر منه في الدنيا من أعمال صغيرة كانت أو كبيرة [١]

قال عز من قائل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[٣]

---

(١) انظر : مفاهيم حول الدين والدنيا ؛ أبو الأعلى المودودي ؛ ص ١٠٩.

(٢) سورة المدثر : الآية : ٣٨

(٣) سورة فاطر ؛ الآية : ١٨

وقال الله سبحانه وتعالى وهو يقرر مسؤولية الإنسان الفردية عن أعماله أيضاً : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (١)

قول سيد قطب رحمه الله في خواطره حول الآيتين الكريمتين : «........ فهي التبعية الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه ، إن اهتدى فلها وإن ضل فعليها ؛ وما من نفس تحمل وزر أخرى ؛ وما من أحد يخفف حمل أحد ، إنما يُسأل كلُ عن عمله ، ويجزى كل بعمله ، ولا يسأل حميم حميما....» (٢)

وللباحث بعد هذا العرض أن يستنتج أن نصوص القرآن قد تضافرت على تقرير المسئولية الفردية للإنسان عن أعماله الشخصية ، وهذه المسؤولية منبثقة من تميزه الفردي.

أولا شك أن استشعار الإنسان الدائم لهذه المسؤولية يولد في نفسه الشعور بأنه كيان مستقل. (٣)

كما أن ذلك يجعله لا يرضى أن يسير في ركب الآخرين بدون رؤية ؛ لأنه يدرك أنه مسؤول بمفرده في النهاية عن أعماله وتصرفاته الشخصية.

ثانياً : تقرير مسؤولية الإنسان عن تقويم أعمال غيره بموجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

أن من أهم ما يجعل الإنسان يعتز بنفسه ويثق بها أن يكون مسؤولاً عن غيره في مهمة من المهام ، لا سيما إذا كانت هذه المهمة تتعلق بتقويم سلوك الآخرين.

ومن هنا ، فإن الإسلام في سعيه لتكوين روح الاعتزاز بالنفس للمسلم ، لم يغفل عن إشباع هذه الغريزة فيه.

---

(١) سورة الإسراء [illegible]

(٢) [illegible] ظلال القرآن [illegible]

(٣) [illegible] شخصية [illegible]

فقرر أن كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي مسؤول عن غيره ورقيب عليه في أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته ، ومسؤول عن تطبيق شرع الله تعالى بموجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي ثبت وجوبه بكثير من نصوص الكتاب والسنة :

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١)

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» (٢)

وقد اتفقت الأمة الإسلامية على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك يقول الإمام النووي رحمه الله : «قد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وهو أيضاً من النصيحة التي هي من الدين» (٣)

ويقول الإمام ابن حزم رحمه الله في ذلك أيضاً : «اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منهم» (٤)

ويلخص الباحث في هذا المطلب أن الإسلام قرر مسؤولية الإنسان الفردية في تقويم الآخرين بموجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٧١.

(٢) صحيح مسلم مع شرح النووي ١ / ٦٩ ، كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكرات من الإيمان ، حديث رقم (٧٨).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١ / ٥١

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني ٤ / ١٧١.

ولكل من هذين الشقين من المسؤولية الفردية دور هام في تكوين روح الاعتزاز بالنفس لديه ؛ لأن الأول منهما يجعل الإنسان في مقاد الحذر واليقظة والتريث والتروي في تصرفاته ، فلا يقبل أن يقلد غيره تقليداً أعمى ؛ لأنه يدرك أنه هو وحده المسؤول في النهاية عن أعماله ، والثاني يجعل الفرد يحس بكرامته الشخصية والاعتزاز بنفسه لكونه قد أصبح محل ثقة وتقدير ، ولكونه أصبح كفواً لتحمل المسؤوليات ، الأمر الذي يجعله لا يرضى أن يسير في ركاب غيره من المسلمين ، فضلاً عن أنه يتشبه بالكفار.

المبحث الرابع

العمل على ربط قلب المسلم بالله وحده

لا يفوت الباحث – وهو بتناول معالم طرق تكوين روح الاعتداد بالنفس – أن يشير إلى معلم آخر هام يتمثل في حرص الإسلام على ربط قلب الإنسان بالله وحده عز وجل ، وتعليقه به.

ويعمل الإسلام على تحقيق ذلك من خلال ما يلي :

أولاً : بيان نعم الله تعالى على العباد وحق ذلك الإنعام عليهم :

وقد جاء ذلك في كثير من نصوص قرآنية اكتفي منها بذكر :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١)

يقول الإمام القرطبي في تفسير الآية الأولى : قوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ» : «خص تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته ؛ إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعاً لهم ؛ وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم» (٢) ويقول في تفسير الآية الثانية : «ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق ؛ ولذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى : «والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه» (٣) فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل الله نداً» (١)

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٢) تفسير القرطبي ١ / ٢٦٦

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٣ / ٣٩٢ مع فتح الباري ؛ كتاب الزكاة ؛ باب الاستعفاف عن المسألة ؛ رقم (١٤٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : قال: قال رسول الله ﷺ

ثانياً فرض مجموعة من العبادات على العبد حقاً لله تعالى :

يعمل الإسلام أيضاً على ربط قلب المسلم بالله تعالى عن طريق فرض مجموعة من العبادات [٢] على أنها حق لله عز وجل على المسلم.

ففي صحيح مسلم عن معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟» قال : قلت : الله ورسوله أعلم ؛ قال «فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ؛ وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً» قال : يا رسول الله ؛ أفلا أبشر الناس ؟ قال : «لا تبشرهم فيتكلوا» [٣]

ومما لا شك فيه أن الإنسان العاقل إذا تأمل نفسه أدرك أن نعم الله تغمره من أعلاه لأدناه ولا شك أنه إذا أدرك هذه الحقيقة ؛ وعرف حق هذه النعم العديدة عليه ؛ انقلب يعبد ربه حتى تنسيه هذه العبودية كل شيء في هذا الوجود إلا الله ؛ وأن هذا الإدراك وما يتبعه العبودية الحقة لله تعالى يملان قلب المسلم بشحنة إيمانية تجعله فرداً إيجابياً له كيانه الخاص ؛ وذاتيته المستقله [٤]

وفي بيان العلاقة بين ربط قلب المسلم بالله وحده وبين تكوين روح الاعتزاز بالنفس يقول الأستاذ محمد قطب : «فأما الفردية .. الشخصية الاستقلالية .. الكيان

«والذي نفسي بيده ، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن ياتي رجلاً فيسأله ؛ أعطاه أو منعه»

(١) المرجع السابق ١ / ٢٣٠

(٢) والعبادات عرفها شيخ الإسلام الإمام ابن تيميه بحقيقتها ومضمونها ؛ وقال عنها : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة» العبودية ص ٤ : ط دار الكتب العلمية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ط أولى

(٣) صحيح مسلم مع شرح النووي ١ / ٣٤٥ ؛ ٣٤٦ ؛ كتاب الإيمان ؛ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ؛ حديث رقم (٤٩).

(٤) انظر : شخصية المسلم بين الفردية والجماعية ؛ د. السيد محمد نوح.

الإيجابي القوي .. فينشئه الإسلام بربط القلب البشري بالله ! إن الإنسان ليتصل بربه فرداً ... هذه الصلة العميقة الوثيقة السارية في أعماق النفس ؛ هي عند كل إنسان صلته الشخصية الفردية بالله ! وإن الإنسان ليستغرق أحياناً في العبادة بالله ؛ ويستغرق في الحب إلى حد أن ينسى كل شيء في الوجود غيره هو ؛ وغير الله ! ويخيل إليه في لحظة الاستغراق العميقة أن الوجود كله قد شف وراق .. ثم خلا من كل شيء ومن كل أحد إلا قلبه الخافق .. والسماع النوراني الذي يصل قلبه بالله ! في لحظة استغراق هذه يمتلئ الإنسان بالشحنة التي توجهه في الحياة .. توجهه فرداً إيجابياً له كيان .. وإنها لتمنحه قوة عجيبة إزاء كل أحد وكل شيء وكل حدث ؛ إنه يحس أنه يحمل تلك القبسة النورانية المقدسة .. القبسة التي احتملها كيان الإنسان الول الذي خلقه الله من طين الأرض ؛ ونفخ فيه من روحه ؛ ومن ثم فهو قوي فعال مريد متصرف .. فهو لا يخضع لغير الحق الذي أنزله الله ؛ ولا يرضى بأن يخنع ويستنيم ويصبح سلبياً إزاء ما حوله من قيم أو أشخاص أو قوة مادية ؛ لأنه يحس وجوده الفردي ؛ ذلك الوجود المشحون بتلك القبسة من الله ؛ متكافئاً لهذه القوة جميعها ؛ بل مستعلياً عليها في داخل نفه ولو هزمت قوته المادية المحدودة فترة من الزمان .. هذه الصلة الفردية الشخصية بالله هي التي تمنح افنسانن وجوده المستقل ؛ فلا ينبهم ؛ ولا يضيع في القطيع» (١)

---

(١) منهج التربية الإسلامية ؛ محمد قطب ١ / ١٦٥ ، ١٦٦

المبحث الخامس

دعوة الإنسان صراحة إلى الاعتزاز بالنفس

أخيراً نجد الإسلام في سعيه إلى تكوين روح الاعتزاز لدى المسلم ؛ لا يكتفي بانتهاج تلك الطرق العملية التي مرت بنا في المطالب السابقة ؛ بل نجده إلى جانب هذه الطرق يسلك طريق دعوة المسلم قولاً إلى أن يعتز بنفسه ولا يحقرها ؛ وألا يقلد الآخرين بدون رؤية.

فقد روى الإمام الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لا تكونوا إمعة [١] ؛ تقولون إن أحسن الناس أحسنا ؛ وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم ؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا ؛ وإن أساؤوا فلا تظلموا» [٢] وفي شرح قوله ﷺ «لا تكونوا إمعة ..» يقول العلامة الزمخشري [٣] «هو الذي يتبع كل ناعق ؛ ويقول لكل أحد : أنا معك ؛ لأنه لا رأي يرجع إليه» [٤] ومعناه : المقلد الذي يجعل دينه تابعاً لدين غيره بلا روية ولا تحصيل برهان.

---

(١) الإمعة – بكسر الهمزة وتشديد الميم – : الذي لا رأي له ؛ فهو يتابع كل أحد على رأيه ؛ والهاء للمبالغة ؛ والهمزة أصلية. انظر : النهاية في غريب الحديث ؛ فصل الهمزة مع الميم ١ / ٦٧

(٢) جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي ٦ / ١٢٢ ؛ ١٢٣ ؛ كتاب البر والصلة ؛ باب ما جاء في الإحسان والعفو ؛ رقم (٢٠٧٥).

(٣) الزمخشري : هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد ؛ الزمخشري ؛ الخوارزمي ؛ النحوي ؛ جاور مكة افصار يقال له : جار الله ؛ صاحب الكشاف ؛ المفضل ؛ كبير المعتزلة ؛ ولد بـ «زمخشر» قرية من أعمال خوارزم في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ؛ وكان رأساً في البلاغة والعربية والمعاني والبيان ؛ وكان داعية إلى الاعتزال. انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠ / ١٥١ – ١٥٦

(٤) الفائق في غريب الحديث

ويقول القارئ تعليقاً على كلام الزمخشري السابق : «وفيه إشعار بالنهي عن التقليد المجرد حتى في الأخلاق ؛ فضلاً عن الاعتقادات والعبادات» (١). وإذا كان الإسلام في هذا الحديث الشريف قد دعا المسلم دعوة صريحة إلى الاعتزاز بالنفس وعدم تقليد الآخرين تقليداً أعمى ؛ كذلك في الحديث التالي ينهي المسلم نهياً صريحاً عن أن يحقر نفسه في تقاعس عن القيام بمسؤوليته في أداء الواجبات المنوطة به مخافة الناس. فقد روى الإمام ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يحقر أحدكم نفسه قالوا : يا رسول الله ؛ كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال : «يرى أمراً لله عليه فيه مقال ؛ ثم لا يقول فيه فيقول الله عز وجل له يوم القيامة : ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول خشية الناس ؛ فيقول فإياي كنت أحق أ، تخشى» (٢)

---

(١) نقلاً عن تحفة الأحوذي ٦ / ١٢٣

(٢) سنن ابن ماجة بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ٢ / ١٣٢٨ ؛ كتاب الفتن ؛ حديث رقم (٤٠٠٨) ؛ قال محققه : «في الزوائد : إسناده ورجاله ثقات» ؛ وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ / ٣٠ ؛ ٤٧ ؛ ٩٠.

الفصل الثاني

آثار تكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى المسلم

إن روح الاعتزاز بالنفس إذا ما رسخت في أعماق الإنسان ؛ وامتلكت جوارحه ؛ انبثقت عنها آثار عديدة تؤدي إلى خصال حميدة تكفي لرفع الهمم ؛ وشد العزائم : وتقوية الإرادة ؛ وقدح المواهب ؛ والتسامي إلى معالي الأمور وأشرفها ؛ والترفع عن دنيئها وسفسافها ؛ وتفجير الطاقات ؛ والوصول بالأمة الإسلامية إن شاء الله إلى ذرى المجد الرفيع حتى تتبوأ مكانها الصحيح في الشهود الحضاري على العالم.

وفيما يلي أذكر أهم هذه الآثار في المطالب الآتية :

المطلب الأول : تنمية روح المساعدة والمبادرة في الخيرات.

المطلب الثاني : تنمية روح التنافس في الخيرات.

المطلب الثالث : تقوية الإرادة وشحذ العزيمة.

المطلب الرابع : إيجاد روح التطلع إلى القيادة والإمامة في الخير.

المبحث الأول

تنمية روح المسارعة والمبادرة بالخيرات

من الآثار الإيجابية الناتجة عن تكوين روح الاعتزاز بالنفس ؛ المسارعة والمبادرة بالخيرات ؛ إن هذا الأثر يظهر ويبرز في شخصية المسلم المستقلة ؛ والمعتزة بنفسها ؛ وذلك لأن صاحب هذه الشخصية لا يؤجل ولا يسوف ؛ ولا يتباطأ في مواطن الخير ؛ وإنما يبادر بالعمل الصالح دون تأخير أو تسويف ؛ بل إنه يدرك أن تقصيره وتقاعسه في عمل الخير واغتنام الفرص من شأنه أن يمكن غيره من سبقه ؛ والمغالبة عليه.

والمسارعة إلى الخر هي الارتياح لعمل الخير ؛ وسرعة التفتح النفسي له ؛ والإقبال الروحي والعملي عليه ؛ والفرح بالدعوة إليه والتذكير به ؛ وهذه فضلية من أكرم الفضائل الإنسانية التي تدل على المعدن الأصيل الطيب عند الإنسان ؛ والاستعداد القوي النبيل للاستجابة في كل موطن من مواطن الخير والبر ؛ وكأن صاحب هذه الفضيلة يجد متعته النفسية ؛ ولذته الروحية في السبق إلى الطيب من القول أو العمل بلا تردد أو إبطاء (١)

ولقد حث القرآن على المسارعة إلى الخير في عدة نصوص ؛ منها قوله تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢)

---

(١) انظر موسوعة أخلاق القرآن ؛ د. أحمد الشرباصي ؛ ١ / ٢٤٢ ؛ ط. دار الرائد العربي ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ؛ ط الأولى

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

ومعنى مسارعة هؤلاء أنهم يبادلون إلى فعل الخيرات والطاعات غير متثاقلين ؛ لمعرفتهم بقدر ثوابهم ؛ وقيل معناه أنهم يبادلون بالعمل الصالح خوف فوات الأوان[١]

وقال تعالى وهو يأمرنا بالمسارعة ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢]

ولقد ذكر المفسرون أقوالاً في بيان ما تأمرنا هذه الآيةّ بالمسارعة إليه ؛ فقيل : معناها المسارعة إلى الإخلاص ؛ وقيل إلى الهجرة ؛ وقيل إلى الجهاد ؛ وقيل إلى التوبة من الربا ؛ وقيل إلى أداء الفرائض [٣]

ولمن الأولى أن تحمل الآية على ما ذكروه هنا وعلى غيره من الخيرات ؛ وفي ذلك يقول الإمام النيسابوري : (سارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم ؛ وذكر المغفرة ليفيد العظيمة المتناهية في العظم ؛ وليس ذلك إلا المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام ؛ والإتيان بجميع الطاعات ؛ والاجتناب عن جميع المنهيات) [٤]

ويقول الإمام القرطبي يعد أن عرض هذه الأقوال : (والآية عامة في الجميع ؛ ومعناها معنى «فاستبقوا الخيرات» [٥]

وفي بيان أنه سبحانه يحقق للمسارعين رجائهم ويجيب دعائهم ؛ وأن المسارعة إلى الخير من صفات الأنبياء ؛ يقول الله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٤ / ١٧٧

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣

(٣) انظر : تفسير القرطبي ٤ / ٢٠٣ ؛ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام نظام الدين الحسن بن الحسين القمي النيسابوري ٤ / ٤٤ ، ٤٥ ط مصطفى البابي ؛ بتحقيق الأستاذ إبراهيم عطوة ؛ ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م ؛ ط الأولى.

(٤) انظر : تفسير رغاب القرآن ٤ / ٦٦

(٥) سورة الأنبياء ؛ الآيتان : ٨٩ ؛ ٩٠

ربّ لا تذرْني فرْداً وأنْت خيْرُ الْوارثين (٨٩) فاسْتجبْنا لهُ ووهبْنا لهُ يحْيى وأصْلحْنا لهُ زوجهُ إنّهُمْ كانُوا يُسارعُون في الْخيْرات ويدْعُوننا رغبا ورهبا وكانُوا لنا خاشعين﴾[1]

وقال سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين : ﴿إنّ الّذين هُمْ منْ خشْية ربّهمْ مُشْفقُون (٥٧) والّذين هُمْ بآيات ربّهمْ يُؤْمنُون) (٥٨) والّذين هُمْ بربّهمْ لا يُشْركُون (٥٩) والّذين يُؤْتُون ما آتوْا وقُلُوبُهُمْ وجلةٌ أنّهُمْ إلى ربّهمْ راجعُون (٦٠) أُولئك يُسارعُون في الْخيْرات وهُمْ لها سابقُون﴾ [2]

ومثلما دعا القرآن المؤمنين ؛ إلى المسارعة في الخيرات ؛ ومدح بها الأنبياء ؛ ووصف بها المؤمنين ؛ وبين أنها من أسباب تحقيق رجاء المسارعين في الخير ؛ كذلك جاءت الآيات تذم المسارعين في المآثم والمعاصي ؛ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ولا يحْزُنْكَ الّذينَ يُسارعُون في الْكُفْر إنّهُمْ لنْ يضُرُّوا اللّهَ شيْئاً يُريدُ اللّهُ ألّا يجْعَلَ لهُمْ حظًا في الْآخرة ولهُمْ عذابٌ عظيمٌ﴾ [3] وقال عز وجل في سورة المائدة : ﴿يا أيُّها الرّسُولُ لا يحْزُنْكَ الّذين يُسارعُونَ في الْكُفْر منَ الّذينَ قالُوا آمنّا بأفْواههمْ ولمْ تُؤْمنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [4] والمسارعة في الكفر تكون بالوقوع فيه ؛ أو بالمبادرة إلى مناصرة أهله ؛ أو مشابهتهم : والرضا بخصائصهم.

وكما أن نصوص الكتاب جاءت حافلة بالدعوة إلى المسارعة إلى الخيرات ؛ والترغيب فيها ؛ والأمر بها ؛ كذلك جاءت السنة تدعو إلى ذلك ؛ وترغب فيها ؛ وتحذر من عواقب التسويف والإبطاء عن العمل الصالح ؛ ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الأنبياء ؛ الآيتان : ٨٩ ؛ ٩٠

(٢) سورة المؤمنون ؛ الآيات ٥٧ – ٦١

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧٦

(٤) سورة المائدة الآية : ٤١

«بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ؛ يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ؛ أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ؛ يبيع دينه بعرض من الدنيا» (١)

يقول الإمام النووي معلقاً على الحديث : «معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم الليل المظلم لا المقمر .... » (٢)

ومن ذلك أيضاً ما رواه الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٣)

فالمعنى : «كن كشخص غريب اغترب لحاجة ؛ فإذا قضاها سارع بالعودة إلى وطنه ؛ أو كن في الدنيا كالمار في الطريق لا يتلبث ول يتوقف، فالمراد من الحديث هو الحث على المسارعة بالأعمال الصالحة، فالمستقبل مجهول» (٤) ولذلك كان ابن عمر يروي هذا الحديث ثم يعقب عليه بقوله: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك (٥)

ومن ذلك أيضاً ما رواه الإمام الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله قال لرجل وهو يعظه: اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك(٦).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢ / ٤٩٢ ؛ كتاب الإيمان ؛ باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن ؛ حديث رقم (١١٨)

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٢ / ٤٩٣.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ١١ / ٢٣٧ ؛ كتاب الرقاق ؛ حديث رقم (٦٤١٦).

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢٣٧/١١، كتاب الرقاق، حديث رقم (٦٤١٦)

(٥) موسوعة أخلاق القرآن، د.أحمد الشرباصي ٢٤٦/٢.

(٦) المستدرك على الصحيحين ٣٠٦/٤، وصححه الحاكم ووافقه الإمام الذهبي.

وفي هذا الحديث الشريف يدعو النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى المبادرة إلى اغتنام الفرص في عمل الخيرات قبل فوات الأوان، لأن الحياة غير مأمونة، والآجال غير معلومة، وما يمكنه اليوم لا يمكن غداً، فالواجب هو الإسراع والمبادرة.

يقول الشاعر:

ليس في كل ساعة وأوان تتهيأ صنائع الإحسان
فإذا أمكنت فبادر إليها حذرا من تعذر الإحسان

وقال الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فما تدري السكون متى يكون
إذا ظفرت يداك فلا تقصر فإن الدهر عادته يخون

ولا تعارض بين ما جاء في النصوص السابقة من الندب إلى المسارعة إلى الخيرات وبين ما جاء من ذم العجلة في قوله صلى الله عليه وسلم (الأناة من الله والعجلة من الشيطان) (١).

يقول الإمام النيسابوري في بيان الفرق بينهما وعند تفسير الآية السابقة. ﴿وسارعوا إلى مغفرة ﴾ وما روي أنه قال النبي : (والعجلة من الشيطان) مخصوص بهذه الآية، على أنها لا تفيد كلية الحكم، لأن القضية أهملت إهمالا كيف والأمور متفاوتة:فمنها ما يحمد فيه التأخير، لكونه مما يحصل على مهل وتدريج، فلو طلب منه خلاف وضعه فات الغرض وضاع السعي، أو لكونه غير معلوم العاقبة فيفتقر إلى مزيد تدبر وتأمل، ومنها ما يحمد فيه التعجيل ضد ما قلناه، فتنتهز فيه الفرصة وتغتنم، فإن الفرص تمر مر السحاب(٢)

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه من حديث سهل بن سعد ١٢٩/٦، مع تحفة الأحوذي، حديث رقم (٢٠٨١) وضعفه.

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابوري ٤٤،٤٥/٤،ط.

ويقول الإمام المباركفوري: (ثم العجلة المذمومة ما كان في غير طاعة وعدم التثبيت وعدم خوف الفوت[١] ، وقال القارئ: بون بين المسارعة والمبادرة إلى الطاعات وبين العجلة المحمودة والعجلة المذمومة. ولكن لمزيد وإيضاح، يضيف الباحث أنه لا يوجد هناك حد فاصل بين العجلة المحمودة والعجلة المذمومة، لأن في هذه المسألة طرفين ووسطاً. فأما الطرفان، فأحدهما العجلة، وهي مذمومة في ذاتها لأنها من صفات أهل الرعونة والتهور والطيش، وهي دليل على فقدان الإرادة القوية على ضبط النفس تجاه انفعالاتها العجولة. وأما الطرف الثاني المقابل للطرف الأول، فهو التباطؤ وهو أيضاً مذموم في ذاته، لأنه من سمات أصحاب الكسل والخمول والتهاون بالأمور، ودليل على أن صاحبه لا يملك الإرادة القوية القادرة على دفع همته للقيام بالأعمال التي تحقق له ما يرجو، أو دليل على أنه ليس لديه همّة عالية تنشد الكمال، فهو يرضي الدنيات إيثاراً للراحة، وتقاسعاً عن القيام بالواجب.

وأما الوسط بين هذين الطرفين فهو الأناة، وهي صفة محمودة في ذاتها، لأنها عبارة عن التصرف الحكيم بين العجلة والتباطؤ، فالأناة (هي المواءمة بين حركة العمل وما يطلبه من السرعة، فما تطلب من الأمور عملاً سريعاً فالحكمة السرعة فيه، وما تطالب من الأمور عملاً بطيئاً، فالحكمة البطء فيه.

فليس للأناة مقادير زمنية محددة، ولكنها تختلف باختلاف حاجة الأشياء إلى الأشياء إلى مقدار السرعة الزمنية، لأن القضية نسبية[٢]

على أنه-وفي ضوء ما ذكر أعلاه- يمكننا الخروج بضابط عام- ولو على وجه التقريب- يفرق بين العجلة المحمودة والعجلة المذمومة، وذلك بحمل الأولى على الإقبال على الطاعات وأعمال الخير الواضحة بالارتياح وانشراح الصدر من غير تردد ولا إبطاء ولا تسويف، روى الإمام أبو داود عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال:

---

(١) تحفة الأحوذي ١٢٩/٦.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حسن حنبكة الميداني ٣٥٢/٢.

قال الأعمش: لا أعلمه إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة) (١)

ويقابل ذلك التكاسل والتثاقل عن الإقبال على الواجبات، كما قال تعالى في ذم المنافقين: (وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) (٢) وكما قال عز وجل في عتاب المتخلفين عن غزوة تبوك:)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) (٣)

ولا ينافي هذا الانشراح والارتياح للعمل الخير، إعداد العدة اللازمة، ومن غير الأناة والتثبت، والتروي والتبصر في العواقب، الأمر الذي يجر في الغالب إلى الفتنة والفوضى والندامة، ولذا قال الله تعالى في وجوب التثبت في تلقي الأخبار قبل إصدار الحكم بموجبها على الناس: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (٤)

فالحاصل أن العجلة المحمودة هي الإقبال على الخير بالارتياح وانشراح الصدر، ولا ينافي ذلك إعداد العدة والتريث والتروي فيما يحتاج إلى ذلك من أعمال.

وأما العجلة المذمومة هي الخوض في الأمور دون إعداد العدة الازمة لها ودون الأناة والتريث والتبصر في العواقب، مما يؤدي إلى الإخلال بالعمل نفسه، أو يؤدي إلى الفتنة والبلبلة والفوضى في المجتمع.

نماذج من سير الصحابة في مبادرتهم ومسارعتهم إلى الخيرات :

---

(١) سنن أبي داود ٥/١٧٥، كتاب الأدب، باب في الرفق، رقم (٤٨١٠) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٧٩٤)

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٥٤

(٣) سورة التوبة آية ٣٨

(٤) سورة الحجرات آية ٦

في سير الصحابة رضوان الله عليهم نماذج حية تدل على أصالة هذه النبوة المحمدية، وأنقل من ذلك النموذجين التاليين:

النموذج الأول: مبادرتهم في تنفيذ أمر تحريم الخمر:

لا شك أن الأمر الذي يعتاده النفس لمدة طويلة وتشتهيه، يصعب عليها أن تتركه، ولكن النفوس المؤمنة التي اكتملت شخصيتها الإعتزازية لا يصعب عليها أن تقلع عما ألفته، إذا كان ذلك الإقلاع يؤدي إلى الخيرات والبر والطاعات. ولهذا لما نزل تحريم الخمر، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أن الخمر قد حرمت سارع الصحابة إلى اجتناب الخمر مسارعة الراغب في رضا الله تعالى، وكانوا -رضوان الله عليهم- حينئذ ما زالوا يشربونها، ولكن ما كادوا يسمعون نداء النادي بتحريم الخمر حتى سارعوا لتنفيذ أمر الله تعالى.

فقد روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كانت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ والبسر والتمر، فإذا منادي ينادي، فقال: اخرج، فانظر فخرجت، فإذا منادي ينادي: ألا أن الخمر قد حرمت، قال: فجرت في ستالك المدينة، فقال لي أبو طلحة: اخرج فاهرقها، فهرقتها.............) (١)

وفي صورة المقابلة لمبادرة الصحابة-رضوان الله عليهم- إلى تنفيذ تحريم الخمر، نجد إصرار الشعب الأمريكي على شرب الخمر مهما كانت العواقب والعقوبات.. وفي بيان هذا الأمر يذكر أن أمريكا حاولت منع الخمر، فأصدرت قانوناً بحظرها عام ١٩١٩ م على أن يطبق عام ١٩٢٠م، جندت لهذا القانون كل قواها البشرية والمادية، وقامت بحملة واسعة من التوعية بأضرار الخمر، وصار تدريس أضرار الخمر جزءاً من المواد الدراسية للمراحل التعليمية المختلفة، وسودت تسعة

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٣٣/٥ ، كتاب المظالم، باب صب الخمر، حديث رقم (٢٤٦٤) ، صحيح مسلم مع شرح النووي ١٥٨/١٣، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، حديث رقم (١٩٨٠).

ملايين صفحة تبين أضرار الخمر الطبية والاجتماعية والأخلاقية ، وبلغت تكاليف الحملة الإعلامية خمسة وستين مليون دولار في ذلك العام فقط ، ولكن لم يكن يمضي على إغلاق الحانات ومصانع الخمور أيام قلائل إلا وابتدأت تنتشر آلاف الحانات السرية......، وفي غضون أشهر قليلة زاد شاربوا الخمر كما كانوا عليه قبل المنع..... وقدم إلى المحاكم ملايين الأشخاص.... وسجن ما بين عام ١٩٢٠م و١٩٣٣م نصف مليون شخص، وقدمإلى القضاء في تلك الفترة مجرمون عتاة ارتكبوا جرائم مروعة بسبب الخمر.......، وقامت الحكومة بمصادرة أملاك ومصانع الخمر السرية، وبلغ قيمة الأموال المصادرة عندئذ أربعمائة مليون دولار. ومع هذا انتشرت العصابات الإجرامية......، وأفلت الكثير منها من قبضة القانون، مما جعل الحكومة الأمريكية والكونجرس الأمريكي يعيدان النظر في قرار منع الخمر[١]

وعند المقارنة بين وقائع الصورتين المتقابلتين السابقين بشأن منع الخمر، نجد أن الشخصية الإيمانية الإعتزازية القوية لدى الصحابة كانت الدافعة وراء مسارعتهم للاستجابة لداعي التحريم، بينما كان ضعف الإيمان والبعد عن دين الله السبب في تملص الناس من قانون منع الخمر في أمريكا.

النموذج الثاني: مبادرة النساء المهاجرات بتنفيذ أمر الحجاب

ن الصعب أن يتحول المرء من عادة ألفها فترة طويلة من حياته إلى عادة أخرى لم يألفها، ولكن التربية الإسلامية تجعل شخصية المسلم تستجيب بسرعة ، لأنها تحس أن هذه الاستجابة تحقق رغبتها الشخصية في نيل رضا الله عز وجل، وهذا ما حصل من النساء المؤمنات عندما علمن أن الله تعالى أمرهن بالحجاب فاستبطأن الانتظار حتى إعداد الخمر الخاص، فبادرن بشق مروطهن واختمرن بها. فقد روي الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (يرحم الله نساء

---

(١) انظر: الخمر بين الطب والفقه، د.محمد بن على البار، ص١٠٠-١٠٣.

المهاجرات الأول، لما أنزل: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ) (شــقَقن مــروطهن فاختمرن) [١]

(وعلى هذا المنهج الواضح المحكم، وبتلك المسارعة فــي العمــل والخيــرات يبنــي الإسلام شخصية المسلم في جو عملي، يستبق الخيرات بحيويــة ونشــاط وتصــميم وإقدام وعزم صادق لا يعرف التسويف) [٢]

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣٤٧/٨ وما بعدها، كتاب التفسير، حديث رقم(٤٧٥٨)

(٢) الإسلام وبناء الشخصية، د.أحمد عمر هاشم، ص١٥٧، دار المنار دون سنة الطبع.

المبحث الثاني

تنمية روح التنافس في الخيرات

ومن أهم الآثار الناتجة أيضاً عن تكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى المسلم ؛ تنمية روح التنافس في مجال الخبرات لديه ؛ لأنه يدرك أن تراخيه وتقصيره في بذل النشاط والجهد يمكن غيره من سبقه ؛ والإمساك بزمام الأمور ؛ وإذا كان هذا الغير المسلم كان تمكينه وسبقه ضرراً على المسلمين.

والحياة كلها تقوم على السبق والمغالبة ؛ والأهداف السلمية إنما تحقق بالإرادة القوية ؛ والعزيمة الصادقة ؛ وليس بالأماني العذبة والطموح الخيالي والتطلع العشوائي ؛ وقديماً قال الشاعر :

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا [(١)]

والتنافس كما يقول الفخر الرازي : تفاعل من نفس ؛ كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر بالشيء المتنافس عليه ... [(٢)]

والمنافسة في الاصطلاح الأخلاقي هي «مجاهدة النفس للتشبه بالأفضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره» [(٣)]

ولقد ورد ذكر التنافس في القرآن والدعوة إليه ؛

قال تعالى : « وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» [(٤)]

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله تعالى : «وهو إيقاع عميق يدل على كثير ..... إن أولئك المطففين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ؛ ولا يحسبون حساب اليوم الآخر ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الإثم والمعصية ...

---

(١) البيت من قصيدة : «ذكرى المولد» لأمير الشعراء أحمد شوقي كما في ديوان الشوقيات ١ / ١٧.

(٢) التفسير الكبير ٣١ / ١٠٠

(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ؛ مادة (نفس) ص ٥٢٣.

(٤) سورة المطففين الآية : ٢٦.

إن هؤلاء إنما يتنافسون في مال أو متاع الأرض الزهيد ... ؛ ما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس ؛ إنما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي ذلك التكريم ... فهو مطلب يستحق المنافسة ؛ وهو أفق السباق ؛ وهو غاية تستحق الغلاب» (١)

ومن معاني المنافسة السابقة (٢) ؛ قال تعالى : «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» (٣)

أي تسابقوا إلى الخيرات والأعمال الصالحة ؛ وهذا يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المستجيبين لله ورسوله في صدر الإسلام بأنهم السابقون الأولون ؛ وهم الذين نافسوا غيرهم وسبقوهم فقال سبحانه : «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (٤)

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم خير من يبعث روح التنافس في الخير بين أصحابه ؛ قد وقف صلى الله عليه وسلم قبيل غزوة أحد ؛ ورفع في يده سيفاً ؛ وقال لأصحابه : «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فتسابقوا بأخذه.

فقد روى الإمام مسلم عم أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال : «من يأخذ مني هذا؟» فبسطوا أيديهم ؛ كل إنسان منهم يقول : أنا أنا ؛

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٨٦٠.

(٢) مفردات القرآن مادة (نفس) صلى الله عليه وسلم ٥٢٣.

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٤٨.

(٤) سورة التوبة ؛ الآية ١٠٠.

فقال : «فمن يأخذ هذا بحقه؟ » فأحجم القوم ؛ فقال سماك بن خرشة أبو دجانة : أنا أخذه بحقه ؛ قال : فأخذه ففلق به هام المشركين [(١)]

كان ﷺ يرغب أصحابه في الفضائل ؛ ويبعث فيهم روح التنافس عليها ؛ فقد رغبهم في فضيلة الأذان ؛ وفضيلة الصف الأول ؛ وفي فضل التبكير إلى الصلاة.

فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ؛ ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ؛ ولو يعمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا» [(٢)]

وقوله ﷺ : «لو لم يجدوا إلا ما يستهموا عليه» أي لو لم يجدوا شيئاً من وجود الأولوية لاقترعوا» [(٣)]. فالاستهام هو الاقتراع ؛ وفي معنى التنافس وزيادة ؛ بأنه إذا كان التنافس لترجيح بعض المتسابقين بالأولوية ؛ فإن الاستهام يأتي بعد ذلك لأخراج بعض المتساوين في وجوه الأولوية.

ومن النصوص الدالة أيضاً على أن النبي ﷺ كان يبعث في أصحابه روح التنافس في الخير ما رواه الإمامان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لا حسد إلا في اثنين : رجل أتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق ؛ ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» [(٤)] ؛ فالحسد المقصود هنا هو الغبطة

---

(١) صحيح مسلم مع شرح النووي ١٦ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ كتاب فضائل الصحابة ؛ باب من فضائل أبي دجانة ؛ حديث رقم (٢٤٧٠)

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ٢ / ١١٤ ؛ كتاب الأذان ؛ باب الاستهام في الأذان حديث رقم (٦١٥) ؛ وصحيح مسلم مع شرح النووي ؛ ٤ / ٤٠١ ؛ ٤٠٢ كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف رقم (٤٣٧)

(٣) فتح الباري ٢ / ١١٥

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ١ / ١٩٩ ؛ كتاب العلم ؛ باب الاغتباط في العلم والحكمة ؛ حديث رقم (٧٣) ؛ وصحيح مسلم مع شرح النووي ٦ / ٣٤٥ ؛ كتاب صلاة المسافرين ؛ باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ؛ حديث قم (٢٦٨)

وهي من المنافسة ؛ يقول الحافظ عند شرح هذا الحديث : «وأما الحسد المذكور فهو الغبطة .... وهي أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه ؛ والحرص على هذا يسمى منافسة» (١)

تنافس الصحابة في الخير :

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتنافسون في الخير ؛ ويتسابقون إلى الطاعات ؛ فكل منهم يود أن يسبق أخاه في مضمار المسابقة في الخير ؛ وهذا التنافس ناتج عن شعورهم الذاتي لا عن تنافرهم ؛ فهم أشد حباً لبعضهم البعض.

وقد سابق عمر رضي الله عنه أبا بكر في مواطن عديدة وقصر عنه ؛ ومن ذلك أن النبي ﷺ طلب ذات يوم صحابته أن يقدم كل منهم صدقة إلى جيش المسلمين ؛ فقال عمر : والله لأسبقن أبا بكر اليوم ؛ وعزم رضي الله عنه أن يضحي بنصف ماله ؛ وهو ما يظن أن أبا بكر يضحي بمثله ؛ ولكن أبا بكر كعادته قلب توقعات عمر رضي الله عنهما ؛ فتصدق بكل ماله وحينئذ قال عمر : والله لا أسابقك بعد اليوم.

والقصة كما يرويها الإمام أبو داود والترمذي في سننهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ؛ فوافق ذلك مالاً عندي ؛ فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً ؛ فجئت بنصف مالي ؛ فقال رسول الله ﷺ «ما أبقيت لأهلك؟» فقلت : مثله ؛ قال : وأتى أبو بكر بكل ما عنده ؛ فقال له رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك؟» قال أبقيت لهم الله ورسوله ؛ قلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً (٢)

---

(١) فتح الباري ١ / ٧٣.

(٢) سنن أبي داود مع عون المعبود ٥ / ٩٤ وما بعدها ؛ كتاب الزكاة ؛ باب الرخصة في ذلك ؛ حديث رقم (١٦٦٢) ؛ وجامع التمذي مع تحفة الآحوذي ١٠ / ١١١ ؛ كتاب المناقب ؛ الباب (٦٠) ؛ حديث رقم (٣٩٢١) ؛ والحديث سكت عنه الإمام أبو داود والمنذري ؛ وقال فيه الإمام الترمذي : «هذا حديث حسن صحيح».

ومن وقائع مسابقة عمر أيضاً لأبي بكر رضي الله عنهما أنهما كانا يوماً مع رسول الله ﷺ ؛ إذا بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ القرآن فأعجب صوته رسول الله ﷺ فوقف يسمع إليه ؛ ثم قال : «من سره أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأه من ابن أم عبد» فتسابق الشيخان لتبشير ابن مسعود بما قال فيه رسول الله ﷺ ؛ فسبق أبو بكر.

وقد روى الإمام أحمد هذه الواقعة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ وأنا معه وأبو بكر على عبد الله بن مسعود وهو يقرأ القرآن ؛ فقام فتسمع قراءته ؛ ثم ركع عبد الله وسجد ؛ قال : فقال رسول الله ﷺ «سل تعطه ؛ سل تعطه» قال ثم مضى رسول الله ﷺ وقال : «من سره أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه من ابن أم عبد الله» قال فأدلجت [١] إلى عبد الله بن مسعود أبشره بما قال رسول الله ﷺ ؛ قال : فلما ضربت الباب ؛ أو قال : لما سمع صوتي ؛ قال : ما جاء بك هذه الساعة؟ قلت : جئت لأبشرك بما قال رسول الله ﷺ ؛ قال : قد سبقك أبو بكر. قلت : إن يفعل فإنه سباق بالخيرات ؛ ما استبقنا خيراً قط إلا سبقنا إليه أبو بكر[٢].

تحديد مجال التنافس :

إذا كان الإسلام يربي المسلمين على روح التنافس ؛ فإنه لم يترك هذا التنافس مطلقاً بدون ضوابط ؛ بل قيده بأن يكون في الخيرات والطاعات ؛ ولهذا لما تحدث القرآن عن الأبرار ومنزلتهم في الجنة ؛ وعلاماتهم ؛ وشرابهم ؛ وغير ذلك

---

(١) أدلج – بالتخفيف – إذا سار من أول الليل ؛ وأدلج – للتشديد – إذا سار آخره ؛ والاسم منهما الدلجة بضم الدال وفتحها ؛ والبعض يجعل الإدلاج لليل كله. انظر ؛ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ؛ باب الدال مع اللام ؛ مادة (دلج) ٢ / ١٢٩.

(٢) مسند أحمد بتحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط ١ / ٢٧٣ ؛ حديث رقم (٢٦٥) : وقال محققه : «إسناده صحيح»

من أنواع النعم التي أعدت لهم في الجنة ؛ أعقبه بقوله تعالى : «وفي ذلك فَلْيَتَنافسِ الْمُتَنافسُون»[١]

وفي تفسيره يقول الفخر الرازي : «وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ؛ لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء» [٢]

التحذير من التنافس على حطام الدنيا :

إذا كان أتباع الشيطان يتنافسون في الآثام والكفران ؛ وعلى متع الحياة الدنيا ؛ فإن رسول الله ﷺ قد حذر المسلمين من التنافس على حطام الدنيا الزائلة بصورة خاصة. فقد روى الإمام البخاري عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن الأنصار اجتمعوا بعد صلاة الصبح حين سمعوا بقدوم أبي عبيدة رضي الله عنه من البحرين ؛ وكان قد بعثه النبي ﷺ ليأتي بجزيتها ؛ وتعرضوا لسؤال النبي ﷺ فقال لهم النبي ﷺ «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء» قالوا أجل يا رسول الله ؛ قال : «فأبشروا وأملوا ما يسركم ؛ فوالله لا الفقر أخشى عليكم ؛ ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ؛ وتهلككم كما أهلكتهم» [٣]

قال الحافظ في شرحه : «وفيه أن المنافسة في الدنيا قد تجر إلى هلاك الدين»[٤]

(١) سورة المطففين ؛ الآية : ٢٦.

(٢) التفسير الكبير ٣١ / ١٠٠

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ؛ ٦ / ٢٩٧ ؛ ٢٩٨ ؛ كتاب الجزية ؛ باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة ؛ حديث رقم (٣١٥٨).

(٤) فتح الباري ٦ / ٣٠٤.

وروى أيضاً عن عقبة بن عامر [١] رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ «إني فرط [٢] لكم ؛ وأنا شهيد عليكم ؛ وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ؛ وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض ؛ وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ؛ ولكن أخاف عليكم أن تنافسوها» [٣] .

ولا ينبغي أن يفهم من النصوص السابقة أن الإسلام يدعو إلى التقاعس عن العمل ؛ أو التكاسل في مضمار الحياة حتى يغلب الكفار ؛ ولكن المقصود أن الإسلام يحذر من أن يكون التنافس في الدنيا من أجل الدنيا ؛ أما التنافس في أسباب القوة لأجل التمكين لدين الله في الأرض من أهداف التمكين للمسلمين ؛ قال تعالى «الَّذين إنْ مكَّنّاهُمْ في الْأرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمرُوا بِالْمَعْرُوفِ ونَهوْا عنِ الْمُنْكرِ ولِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» [٤]

هذا ؛ وعلينا أن نعلم أن تنافس شخصين في أمر واحد لا يستلزم أن يكون هدفهما واحداً.

فلقد حكى القرآن الكريم قصة يوسف مع امرأة العزيز ؛ وقال : «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » [٥]

فكل من يوسف عليه السلام وامرأة العزيز قد سابق الآخر نحو الباب ؛ ولكن امرأة العزيز سارعت نحو الباب استمراراً في مراودتها ليوسف ؛ وسارع يوسف إليه فراراً بدينه وعفته ؛ «فالمرأة سابقت إلى الشر ، ويوسف سابق إلى الخير» [٦]

---

(١) عقبة بن عامر : هو أبو أحمد الجهني ؛ صحابي ؛ ولي مصر لمعاوية ؛ وكان قارئاً ؛ عالماً بالفقه والفرائض ؛ شاعراً شجاعاً ؛ قديم الهجرة ؛ توفى سنة ٥٨ هـ.

(٢) إني فرط لكم بفتح الفاء والراء : إني سابقكم ؛ فتح الباري ٣ / ٢٥٠

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ٣ / ٢٤٨ وما بعدها ؛ كتاب الجنائز ؛ باب الصلاة على الشهيد ؛ حديث رقم (١٣٤٤).

(٤) سورة الحج ؛ الآية : ٤١

(٥) سورة يوسف ؛ الآية : ٢٥.

(٦) انظر موسوعة أخلاق القرآن ؛ د. أحمد الشرباصي ٦ / ١٠٦.

المبحث الثالث

تقوية الإرادة وشحذ العزيمة

ومن الآثار الإيجابية الناتجة أيضا عن تكوين روح الإعتزاز بالنفس هو وتقوية الإرادة وشحذ العزيمة ؛ فإن هذا الأثر يظهر ويبرز في نجاح الأفراد والأمم والشعوب ؛ ذلك لأن الحياة كلها مشاق ومصاعب وتكاليف ؛ وإن الطريق إلى معالي الأمور صعب المسالك ؛ كثير العقبات ؛ ولذا لا يمكن بلوغ الهدف إلا بتضحيات كثيرة ؛ وجهود جبارة ؛ ولكي ينجح المسلم في هذا الطريق الشائك الوعر ؛ فلا بد له من أن يعلى همته ؛ ويقوي إرادته ؛ ويشد عزيمته وإلا سقط أثناء الطريق ؛ واختفى عن مسرح الحياة ؛ أو أصبح وجوده في ركب الآخرين يتبعهم في أقوالهم وافعالهم.

لذا ؛ فإن المسلم حريص بدافع من دينه أولاً ثم بدافع من ذاتيته على إعلاء همته ؛ وتقوية إرادته ؛ وشد عزيمته ؛ حتى يتمكن من مجابهة مشاق وتكاليف الطريق ؛ فيبقى حاضراً على مسرح الحياة ؛ مؤثراً فيها .. » (١)

والعزم والعزيمة هو عقد القلب على إمضاء الأمر الذي يريد أن يفعله ؛ يقال : عزمت الأمر ؛ وعزمت عليه ؛ واعتزمته. (٢)

«وهذا المعنى يدل على الثبات واستقرار النية ؛ والتصميم على القيام بشيء ؛ وضد العزيمة هو التردد والاضطراب في الرأي ؛ ولذلك يقال : ما لفلان عزيمة ؛ أي ليس له ما يعقد عليه قلبه ولا يثبت على شيء لتردده وتلونه ؛ كأنه لا يمكنه أن يصرم أمره بل يختلط فيه ويتردد» (٣)

---

(١) شخصية المسلم الفردية والجماعية ؛ د. السيد محمد نوح : ص ٢٠.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني : مادة (عزم) : ص ٣٤٦.

(٣) موسوعة القرآن ؛ د. أحمد الشرباصي ٤ / ١١.

أما الإرادة فهي من يرود إذا سعى في طلب شيء · والإرادة في الأصل كما يقول العلامة الأصبهاني : «قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل ؛ وجعل اسما لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل. [١]

ولقد أشار القرآن إلى أهمية إمضاء العزيمة في قوله تعالى : « وشاوِرْهُمْ في الأمْرِ فإذا عزمْتَ فتوكَّلْ علَى اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يُحبُّ الْمُتوكِّلين» [٢] يقول الشيخ رضا رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية : «وذكر أهل التفسير أن الآية صريحة في وجوب إمضاء العزيمة المستكملة لشروطها وأهمها في الأمور العامة حربية كانت أم سياسية أم إدارية – المشاورة ؛ وذلك أن نقض العزيمة ضعف في النفس : وزلزال في الأخلاق لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل ؛ فإذا كان ناقض العزيمة رئيس حكومة أو قائد جيش ؛ كان ظهور نقض العزيمة منه ناقصاً للثقة بحكومته أو بجيشه ؛ ولا سيما إذا كان بعد الشروع في العمل ؛ ولذلك لم يصغ النبي ﷺ إلى قول الذين أشاروا عليه بالخروج من المدينة في غزوة أحد ؛ حين أرادوا الرجوع عن رأيهم خشية أن يكونوا قد استكرهوه ؛ وكان ﷺ قد لبس ملابس الحرب ؛ وخرج ؛ وذلك شروع في العمل بعد أن أخذت الشورى حقها ؛ وإن الرئيس إذا شرع في العمل تنفيذاً للشورى لا يجوز أن ينقض عزيمته ؛ ويبطل عمله ؛ وإن كان يرى أن أهل الشورى أخطأوا – كما يرى ﷺ في مسألة الخروج إلى أحد» [٣]

ولأجل أهمية العزيمة كان النبي ﷺ يسأل ربه أن يلهمه الثبات والعزيمة في الأمور.

فقد روى الإمام أحمد عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات ندعو بهن في صلاتنا ؛ أو قال : في دبر صلاتنا : «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ؛ وأسألك العزيمة ؛ عزيمة الرشد ؛ وأسألك شكر نعمتك وحسن

---

(١) مفردات القرآن : مادة (رود) ؛ ٢١٢.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٩

(٣) تفسير المنار ؛ للشيخ رشيد رضا ؛ ٤ / ٢٠٥ ؛ ط. دار المعرفة : ط الثانية بدون تاريخ.

عبادتك ؛ وأسألك قلباً سليماً ؛ ولساناً صادقاً ؛ واستغفرك ما تعلم ؛ وأسألك من خير ما تعلم ؛ وأعوذ بك من خير ما تعلم» [(١)]

نماذج من سير الصحابة تدل على قوة عزيمتهم في الحق :

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ أشد الناس عزيمة ؛ وأقواهم إرادة في نصرة الحق والثبات عليه ؛ وإمضاء ما يقتضيه الحق ؛ وتمليه المصلحة العامة.

ولقد حفلت سيرتهم بنماذج حية تنير الدرب لمن أراد أن يسير فيه ؛ ويتبعهم عليه.

وفي هذا المقام يطيب للباحث أن يعرض بعض النماذج الآتية :

النموذج الأول : عزمهم على ملاحقة العدو بعد غزوة أحد رغم تخويف الناس لهم ومحاولتهم ثنيهم عن عزمهم :

بعدما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد أمر الصحابة بالخروج في اليوم التالي لملاحقة الأعداء لإرهابهم حتى لا يطمعوا في العودة إلى المدينة ؛ فلبى الصحابة رضوان الله عليهم دعوته ﷺ رغم كونهم مثقلين بجراحاتهم ؛ وبينما هم في الطريق إلى حمراء الأسد حيث عسكر جيش قريش إذا قدم عليهم ركب من عبد القيس ؛ وكان أبو سفيان قد حمل هؤلاء رسالة تخويف لرسول الله ﷺ وأصحابه ؛ وقال لهم «فإذا جئتموه (النبي) فأخبروه أنا أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» [(٢)]

وحاولوا بذلك ثني المسلمين عن عزمهم على ملاحقة عدوهم ؛ فما زادهم إلى إيماناً وثباتاً وإصراراً على إمضاء عزمهم ؛ وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ فنزل

(١) مسند أحمد ٤ / ١٢٥ ؛ وسنن الترمذي مع تحفة الأحوذي : ٩ / ٢٤٨ : ٢٤٩ ؛ كتاب الدعوات ؛ حديث رقم (٣٦٣٢) ؛ وفي سنده – كما يقول الشيخ المباركفوري – رجل مجهول.

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ١٠٣ ؛ ط . مؤسسة علوم القرآن بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين ؛ وتاريخ الطبري ٢ / ٦٠ ؛ ط. دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م ؛ ط. الثانية.

مدحا في هذا الموقف الشجاع ؛ وتخليداً لذكراه قوله سبحانه وتعالى : «الّذين اسْتجابُوا للّه والرّسُول منْ بعْد ما أَصابهُمُ الْقرْحُ للّذين أحْسنُوا منْهُمْ واتّقوْا أجْرٌ عظيمٌ (١٧٢) الّذين قال لهُمُ النّاسُ إنّ النّاس قدْ جمعُوا لكُمْ فاخْشوْهُمْ فزادهُمْ إيماناً وقالُوا حسْبُنا اللّهُ ونعْم الْوكيلُ» (١)

النموذج الثاني : عزم الصديق على تنفيذ جيش أسامة رغم اضطراب الأحوال في الجزيرة العربية :

عزم الصديق رضي الله عنه على تنفيذ الجيش الذي كان النبي ﷺ قد جهزه قبل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه ؛ وكان بعض الصحابة – ومنهم عمر بن الخطاب – رضوان الله عليهم يعارضون في إرسال هذا الجيش لاضطراب الأحوال في بلاد الجزيرة ؛ ولصغر سن أسامة رضي الله عنه. ولكن أبا بكر رضي الله عنه أصر على تنفيذ الجيش كما أمر به النبي ﷺ وقال : «لا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ؛ ولو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ ثم وثب – وكان جالساً – فأخذ بلحية عمر وقال له : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ؛ استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله (٢)

النموذج الثالث : عزم الصديق رضي الله عنه على قتال المرتدين :

بعدما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ؛ وتولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة ؛ اضطربت الأحوال في البلاد ؛ وارتدت بعض القبائل العربية ؛ وادعى بعضهم النبوة ؛ وامتنع الآخر عن دفع الزكاة.

يصور الإمام الطبري رحمه تعالى هذه الحالة قائلاً :

«لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في وصف الحالة بعد وفاة النبي ﷺ : «لما توفى رسول الله ﷺ نجم النفاق ؛ وارتدت العرب ؛ واشرأبت اليهودية

---

(١) سورة آل عمران : الآيات : ١٧٢ – ١٧٤.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ١٣٩

والنصرانية ؛ وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم حتى جمعهم الله على أبي بكر ؛ فلقد نزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ؛ فوالله ما اختلفوا في أمر إلا طار إليه بعلاجه» (١)

وفي هذا الجو المضطرب أشار بعض الصحابة – ومنهم عمر بن الخطاب – رضوان الله عليهم على أبي بكر رضي الله عنه بالكف عن قتال مانعي الزكاة حتى يتفرغ للمتنبئين ؛ وقال عمر لأبي بكر محتجاً عليه : « كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ؛ فمن قال : لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق للمال ؛ والله لو منعوني عقالاً(٢) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه . فقال عمر : فوالله ما هو إلا أني رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق »(٣) .

هكذا رأى أبو بكر رضي الله عنه أن يأخذ هؤلاء أخذاً لا هوادة فيه ولا لين ؛ لأن في امتناع هؤلاء عن دفع الزكاة هدماً لركن من أركان الإسلام قد يؤدي التساهل فيه إلى هدم سائر الأركان .

ولم يكتف الصديق رضي الله عنه باتخاذ قرار قتال المرتدين ومانعي الزكاة ؛ بل عزم على الخروج بنفسه ليباشر قتالهم ؛ فناشده المسلمون البقاء في مركز القيادة

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٥٤.

(٢). العقال – بكسر العين – المقصود به هنا : الحبل الذي يعقل به البعير الذين يؤخذ في الصدقة ؛ انظر : شرح النووي على مسلم ١٢ / ٣٢٣ ؛ والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣ / ٢٨٠ ؛ مادة (عقل)

(٣). الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ؛ كتاب الاعتصام : حديث رقم (٧٢٨٤؛ ٧٢٨٥) ؛ ١٣ / ٢٦٤ مع فتح الباري ؛ والإمام مسلم في صحيحه ؛ كتاب الإيمان : باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ؛ حديث رقم (٣٢) ؛ ٢ / ٣١٤ : مع شرح النووي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في المدينة المنورة ؛ وقالوا له : « ننشدك الله يا خليفة رسول الله ﷺ أن تعرض نفسك ! فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ؛ ومقامك أشد على العدو ؛ فابعث رجلا ؛ فإن أصيب ؛ أمرت آخر ؛ فقال : لا والله ؛ لا أفعل ؛ ولأوسينكم بنفسي فخرج في تعبيته إلى ذي حسي وذي القصة . . . » (١) .

فقد شعر رضي الله عنه بأن التساهُل في المتنبئين ومانعي الزكاة سيؤدي إلى نقصان الدين وقد كان كاملاً ؛ وشعر بأن مسئولية نقصان الدين في خلافته إنما هي مسؤليته وحده ؛ واستشعار هذه المسئولية الفردية هو الذي ولد في نفس أبي بكر هذه العزيمة الصادقة ؛ والإصرار القوي على محاربة المرتدين ومانعي الزكاة .

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٥٦ ؛ وتاريخ الخلفاء الراشدين للإمام السيوطي : ص ٦٦.

المبحث الرابع

إيجاد روح التطلع إلى القيادة والإمامة في الخير

ومن الآثار الإيجابية الناتجة أيضاً عن تكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى المسلم ؛ إيجاد روح التطلع إلى الإمامة لديه .

فإن المسلم الذي يحس بذاتيته وفرديته ؛ وبأنه هو المسئول وحده عن أعماله ؛ والمجازى عليها ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، يتطلع دائما ليس إلى مسابقة الآخرين فحسب ، بل إلى أن يكون هو القدوة والإمام لغيره ، ومن ثم يقتدي به الآخرون ويتأسون .

ولأنه أيضاً يدرك أن تمكينه هو من هذه القيادة والإمامة ، هو في حد ذاته تمكين لدين الله في الأرض ، كما قال تعالى : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ »(١)

ومن هذا المنطلق فإن المسلم الذي اكتملت شخصيته الإعتزازية يسعى إلى الإمامة في دينه وخلقه وسائر معاملاته مع الناس ؛ لأن فشله هو في ذلك من شأنه أن يؤدي إلى ظهور الكفار والفساق في صورة الأبطال والقادة والأئمة ، ليوهموا الناس بأنهم القدوة التي ينبغي أن تتبع فيتخذهم الرجال والنساء وضعاف النفوس مثلهم الأعلى ، يتقمصون شخصياتهم ، ويتشبهون بهم في العادات والأخلاق ، وليس ذلك إلا للفراغ الذي أحدثه غياب الإمامة الصالحة .

وتكمن أهمية الإمامة الصالحة في أنها هي التي تجسد المبادىء الإسلامية في أرض الواقع ، وتترجمها في النموذج العملي المشاهد ، وذلك في خاصتها أولاً ، ثم بتربية الأجيال الناشئة عليها ، وبدون ذلك تبقى معظم المبادىء الإسلامية مجرد نظريات ليس لها نصيب في أرض الواقع (٢) .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٤١

(٢). انظر : منهج التربية الإسلامية ، محمد قطب.

والإسلام قد أدرك هذه الأهمية للإمامة والقدوة الصالحة ، فاختار الله عز وجل رسوله وحبيبه المصطفى ﷺ ليكون هو القدوة لأمته ، قال تعالى : « لقدْ كان لكُمْ فِي رَسُولِ اللَّه أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لمنْ كان يرْجُو اللّه وَالْيَوْمَ الْآخرَ وذكر اللّه كثيراً»[١].

ولقد ذكر القرآن من صفات عباد الرحمن الأخيار أنهم يتطلعون إلى القيادة والإمامة ، ويسألون ربهم أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم ، قال تعالى : « وَالّذين يقُولُون ربَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنا وَذُرِّيَّاتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعلْنَا لِلْمُتَّقين إماماً »[٢] .

ومعناها : " اجعلنا أئمة في التقوى نأتم بمن كان قبلنا ، ويأتم بنا من بعدنا"[٣]

أو معناها : " اجعلنا قادة في الخير ودعاة هدى يؤتم بنا في الخير " [٤] .

وليس المراد هنا بالإمامة إمامة الصلاة [٥] .

كما أن التطلع إلى الإمامة في الخير من أدعية الأنبياء والصالحين عليهم السلام ، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم خليل الله عليه السلام يسأل ربه عز وجل أن يجعل ذريته أئمة بعد أن وعده بالإمامة في نفسه ، قال سبحانه وتعالى : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » [٦] .

ولعل هذه الأهمية الكبيرة للإمامة والقدوة الصالحة في توجيه المجتمع هو السر في أن الكفار وأعوانهم يسعون دائما إلى تزيين الفساق والعلمانيين في الدول الإسلامية ، ثم تقديمهم للناس في صورة أبطال حتى يقتدوا بهم ، في الوقت الذي يسعون فيه إلى قتل هيبة الدعاة والعلماء والصالحين في نفوس الشعب ، وذلك

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٧٤

(٣) فتح الباري ١٣ / ٢٦٥

(٤) المرجع السابق ١٣ / ٢٦٥

(٥) المصدر السابق ١٣ / ٢٦٥

(٦) سورة البقرة الآية ١٢٤

بتشويه سمعتهم وإثارة السخرية منهم ، حتى لا تكون للداعية كلمة مسموعة في توجيه المجتمع .[١]

ولنا أن نتذكر هنا بأن سخرية أهل الباطل من الدعاة ودعوتهم أمر قديم ، ولقد حكى القرآن الكريم من ذلك شيئا كثيرا ، فمن ذلك سخرية قوم نوح منه ، قال تعالى في بيان ذلك : « فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ »[٢] .

وقال سبحانه وتعالى عن قوم هود معه : « وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»[٣] .

وقال عز وجل عن أهل مدين مع نبي الله شعيب عليه السلام : « فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ »[٤]

وقال تعالى : « قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ »[٥] .

وقال تعالى مبينا أن الاستهزاء بالرسل والدعاة هو دين أهل الكفر والباطل : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ »[٦] ، « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ

---

(١) انظر : أثر الظروف النفسية والاجتماعية في سلوك الداعية. د. محمد محمد أبو زيد ، ص ٦٥

(٢) سورة هود ، الآية ٢٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان : ٦٥ ، ٦٦

(٤) سورة هود الآية ٨٤

(٥) سورة هود الآية ٩١

(٦) سورة الحجرات الآية ٦

بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » (١) .

وقال تعالى مبينا أن الاستهزاء بالرسل والدعاة هو دين أهل الكفر والباطل : « وكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ *وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (٢) .

والآيات في هذا الباب كثيرة جدا ، ويكتفي بما ذكر لبيان موقف أهل الباطل مع الدعاة .

وينبغي أن نعرف أن سخرية أهل الباطل من الدعاة ليست لمجرد السخرية ، وإنما المقصود بها رفع شأن أهل الكفر من خلال سخريتهم من أهل الحق ، ويدل على ذلك قول فرعون عن نبي الله موسى عليه السلام – وهو في موقف المفاضلة بينهما (٣) – قال : « أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ».

لهذا فإن المسلم يتطلع دائما – بدافع من دينه ، ثم بدافع من ذاتيته – إلى أن يكون محل القدوة والإمامة ليس للعامة فحسب ، بل حتى للمتقين والصالحين أيضاً ، وبذلك يسد الباب على الكفار وأعوانهم أن يتسللوا لاستغلال فراغ المواقف فيفسدوا على الشباب عقولهم وأذواقهم فيقلدوهم ، ويتشبهوا بهم .

أقول : تلكم هي آثار تكوين روح الاعتزاز بالنفس لدى المسلم ، وكلها آثار لا تخفى أهميتها في بناء الشخصية الإسلامية القوية .

---

(١) سورة الطور الآية ٣٠

(٢) سورة الزخرف الآيتان ٦ ، ٧

(٣) انظر أثر الظروف النفسية والاجتماعية في سلوك الداعية : مرجع سابق ؛ ص ٩٤

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ؛ والصلاة والسلام على سيد البشر وإمام المرسلين ، سيدنا محمد ﷺ .

فإن الأمة الإسلامية سبق لها أن قادت الحضارة البشرية بشتى مناحيها على يد سيد البشر وإمام المرسلين محمد ﷺ . فأعزها الله تعالى وأكرمها وبوأها مكانة الريادة والسيادة

والإمامة بين الأمم المتحضرة آنذاك ؛ وكل هذا بفضل الله تعالى أولا ؛ ثم بفضل تمسكها بعقيدتها الصافية؛ وما زالت الأجيال الإسلامية تتعاقب على حمل تلك الراية والقيادة على مر العصور . حتى بدأت الانحرافات العقدية تطل برأسها على الفكر الإسلامي . تفسد التصورات ، وتشوه المفاهيم ؛ فتفشت في المسلمين روح التوكل والتقاعس عن البناء والتعمير بدعوى التوكل على الله والزهد في الدنيا والرضا بالقضاء والقدر ؛ ثم أعقب ذلك الركود العلمي والفكري . حيث فترت الهمم عن التحصيل ، وخمدت في العلماء جذوة التفكير والابتكار وكانت الخلافات السياسية والصراعات المذهبية لها دور عظيم في إضعاف قوة المسلمين وكسر شوكتهم وأصيبت معظم الشعوب الإسلامية بالشلل الفكري ؛ والانهزام النفسي والخواء الروحي فتداعت الأمم الكافرة على الأمة الإسلامية تغزوها بجيوشها الغازية للأراضي وبأفكارها الهادمة الغازية للقلوب والعقول . من أجل هذا كله رأيت أن سبيل نهضة هذه الأمة الإسلامية اليوم هو تكوين شخصية المسلم كما أمر الإسلام قرآناً وسنة ، وبث روح الثقة فيه ومعرفة المسلم بصفة شخصية كبشر منذ خلقه الله وكفرد من أمة إسلامية لها مكانتها وقوامها على الأمم .

فكان هذا البحث صرخة مدوية في أذن المسلمين تناولت فيه بث روح الاعتداد بالنفس لديهم ؛ وآثار تكوين روح الاعتداد بالنفس لدى المسلمين . فإذا وقف المسلم على حقيقة نفسه قويت شخصيته وقويت شوكته واستطعنا جميعاً أن نقف في وجه هذا الوغد القاتل (أمة الكفر) .

والله ولي التوفيق

الباحث